هل انتهى عصر الثقافة الوطنية

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

٩٧ شارع المنتزة ـ ميدان ألف مسكن ـ مصر الجديدة

تليفون وفاكس : ٢٦٣٧٣٢٧٢ ـ ٢٦٣٧٤٢٧٣ ـ ٠١٠٠١٦٣٣٧١٨

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

http://shoroukintl.com

د. محمد الجوادى

هل انتهى عصر الثقافة الوطنية

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الجوادى، محمد.

هل انتهى عصر الثقافة الوطنية/ محمد الجوادى.

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤م.

٩٦ص؛ ١٤×٢٠سم.

تدمك 3-114-701-977-978

١ ـ الثقافة العربية.

أ ـ العنوان ٣٠١,٢٠٩٥٣

Ǔłyǿæâł Ǭǿāʒ ١٥٦٤٤/ ٢٠١٤م

I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 114 - 3 Ǻǩþyǩł Ǭǿāƹǫǩł

إهـــــداء

إلى الصديق الكريم
الأستاذ الشاعر
عبد اللطيف عبد الحليم
تحية تقدير وتكريم

محمد الجوادى

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

ƙƙƣ Ğ ǩł łʑǵ..٧

ƙƙǩł :ğƿàł ǥ ƞǲǸǅǾ ƞəƙǢƦǩł..............................١١

ما هى الثقافة؟..١٣

للثقافة دور سياسي أكبر من تصورنا.........................١٩

المثقف العربي ومأساة العراق..............................٢٥

ƙƙǩł :ǼǲƙƦǩł ƞəƙǢƦǩł ǩłƿ ƞūǭƙʅ...........................٣١

التوفيق بين التعليم العالي والثقافة في الوطن العربي......٣٣

ƙƙǩł :ƤǩƙƦǩł ƞəƙǢƦǩł ǩłƿ ƞǽƐƮ...........................٥١

حرية التفكير والبحث العلمي...............................٥٣

ƙƙǩł :ǔƛłƐǩł ƞəƙǢƦǩł ǩłƿ ƟƙǭǸǬūǮ...........................٧٣

هل يبقى الكتاب بعد انتشار الكمبيوتر؟......................٧٥

الثقافة ومستقبل صناعة المعلومات الوطنية..................٨١

نحو منظومة إعلامية.......................................٨٧

كتب المؤلف..٩٣

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من الفصول التي تحاول أن تجيب علي السؤال الذي يتضمنه عنوان الكتاب ، وأظن أن هذا السؤال هو ما يجمع هذه الفصول و الدراسات التي كتبت في ظروف مختلفة ، وعلي مدي زمني تجاوز ربع قرن من الزمان الملتبس الذي نعيشه .

وقد كتبت ما يضمه هذا الكتاب من هذه الدراسات (والفصول والتقارير والمقترحات والمواد الموسوعية أيضا) للإجابة علي مدي رأيي في صحة الاستفسار أو التقرير القائل بأن تناولنا للثقافة يحتاج الي فهمها ، وربما لا يحتاج إلي معرفتها، ولا إلي معرفة كنهها ، وهو استفسار يلخص دعوي القائلين بأن المثاقفين أكثر أهمية من المثقفين ، ولست مع هذا الرأي ولا مع نقيضه ، ولكني في واقع الأمر ومبتغاه اؤمن بأن المتثقفين أهم بكثير من هولاء واولئك.

لهذا فإني أدعو الله سبحانه وتعالي أن أكون قد وفقت فيما طرحته من رؤي وفيما جمعته من مقالات وفيماضربته من زيف أو زيغ وفيما قسمته من أدوار.

وكلي امل ان يسهم هذا العمل المتواضع في فتح الاعين علي تاريخنا وعلي كتابتنا للتاريخ علي حد سواء ، وان يزيد ابناء الوطن معرفة بالوطن وبتاريخه وادبياته التاريخية

وكلى أمل ايضا أن يسهم هذا الكتاب ايضا فى تنمية وعينا بمؤرخينا، وبتنمية وعينا بدراسة التاريخ وفهمه ونقده

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسى أنى لا أخلو من الرياء فى كل ما أفعل

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينى سواءالسبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين،

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم و وصب وقلق،وأن يحسن ختامى ، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى ، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول وهو جلّ جلاله الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية فله سبحانه وتعالى ـ وحده ـ الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل

د.محمد الجوادي

القاهرة

فبراير ٢٠١٠

الباب الأول

كينونة الثقافة

ماهي الثقافة ؟

يطلق هذا اللفظ عادة علي الجانب العقلي من المدنية أو الحضارة، و بالتالي يمكن تعريفه علي أنه مجموعة الأعراف والطرق والنظم والتقاليد التي تميز جماعة أو أمة أو سلالة عرقية عن غيرها.

وعلي مستوي الفرد يطلق اللفظ علي درجة التقدم العقلي التي حازها، بصرف النظر بالطبع عن مستويات الدراسة التي أنجزها.

ومنذ وقت طويل تتعدد التعريفات لهذا اللفظ حتي إنه في مطلع الخمسينيات حصر عالمان من علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين مائة وخمسين تعريفاً للثقافة. وتلقي التعريفات المختلفة أضواء علي المراد باللفظ الذي يفهمه العامة بأكثر مما يفهمون تعريفه، ويمكن لنا تأمل ما توحي به تعريفات مهمة من قبيل أن مفهوم الثقافة يشير إلي كل ما يصدر عن الإنسان من إبداع أو

إنجاز فكري أو أدبي أو علمي أو فني.

أما المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة فهو أكثر شمولاً، ويعد الثقافة حصيلة كل النشاط البشري الاجتماعي في مجتمع معين، ويستتبع هذا أن لكل مجتمع ثقافته الخاصة المميزة، بصرف النظر عن مدي تقدم ذلك المجتمع أو تأخره. ويتميز هذا المفهوم ببعده عن تحميل الثقافة بالمضمونات القيمية وإن اعترف بأن لكل ثقافة نسقها الخاص من القيم والمعايير.

■

وفي مقابل هذا المفهوم الأنثروبولوجي الواسع نجد مفاهيم كثيرة أكثر تحديداً، فكثيراً ما تستخدم الثقافة للإشارة إلي النشاط الاجتماعي الذهني والفني، وفي أحيان أخري إلي النشاط الفني وحده أو النشاط الأدبي والفني دون النشاط العلمي الذي يعده البعض غير خاضع لأنساق الثقافات باعتباره مرتكزاً علي حقائق مطلقة بعيدة عن التأثر بالذوق أو البيئة أو الموروثات جميعاً.

ويتضح هذا المفهوم بطريقة بيروقراطية في مصر حين تمنح أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا (ومن قبل المجلس الأعلي للعلوم) جوائز الدولة في العلوم، علي حين يمنح المجلس الأعلي للثقافة نفس الجوائز في الآداب والفنون، وتضاف إليها العلوم

الاجتماعية، (وقد كان هذا قائماً منذ كان المجلس السابق مجلساً للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية)..

وتأخذ كثير من البلدان الإسلامية بمثل هذا التقسيم مع اختلافات طفيفة، فعلي حين تعد العمارة فناً من الفنون، فانها في أحيان كثيرة تعامل علي أنها علم هندسي يتبع بالتالي العلوم ومجالسها لا الفنون. وقد ذكرنا العمارة بالذات لأنها أحد المكونات البازة للثقافة القومية، بل ربما كانت بمثابة أولي مقومات تكوين الفكرة عن الثقافة لدي الآخرين الذين يطلعون عليها للوهلة الأولي.

ومن تعريفات الثقافة الأخري التي تلق الضوء علي معناها أنها مجموع العادات والفنون والعلوم والسلوك الديني والسياسي منظورا إليها ككل متمايز يميز مجتمعاً عن آخر. ومن ثم يمكن فهم تعبيرات مثل «الصراع الثقافي» للتعبير عن الصراع أو التسابق بين ثقافتين متجاورتين، أو التغير والارتقاء في عدة جوانب من النمط الثقافي.

كما يمكن استخدام لفظ الثقافة للدلالة علي الجوانب العقلية والفنية للحياة، في مقابل الجوانب المادية والتكنولوجية لها، ومن ثم تصبح الثقافة بمثابة نمط كل الترتيبات ـ المادية أو السلوكية ـ التي يحقق ـ من خلالها ـ مجتمع معين لأعضائه إشباعات أكبر مما يستطيعون تحقيقه في حالة مجرد الطبيعة.

■

ويميز بعض الباحثين بين ثقافة مادية تشمل العدد والأدوات والسلع الاستهلاكية والتكنولوجيا وثقافة لا مادية تشمل القيم والتقاليد والمنظمات والتنظيم الاجتماعي، وتنطوي الثقافة علي اكتساب وسائل اتصال (اللغة، المطالعات، الكتابات) وأدوات عمل معينة، وأفكار وأعمال مثل الحساب، وعلي زاد ضخم من المعرفة والاعتقاد، وعلي منظومة من القيم، وعلي توجه ميول خاص ملازم، ويمكن لكل هذا أن يكتمل ويرتقي بتربية متخصصة قليلاً أو كثيراً، وتدريب يسمح باستفادة اجتماعية بالأنشطة الفردية.

ويري الأنثربولوجيون أن الثقافة تتمايز وتستقل عن الأفراد الذين يحملونها ويمارسونها في حياتهم اليومية، فعناصر الثقافة تكتسب بالتعلم من المجتمع المعاش، علي اعتبار أن الثقافة هي جماع التراث الاجتماعي المتراكم علي مر العصور.. وعلي هذا يُبعد هؤلاء عن الثقافة كل ما هو غريزي أو فطري أو موروث بيولوجيا.

■

وللسمات الثقافية قدرة هائلة علي البقاء والانتقال عبر الزمن، وكثير من هذه السمات والملامح التي تتمثل بوجه خاص من العادات والتقاليد والعقائد والخرافات والأساطير تحتفظ بكيانها لعدة أجيال.. ويهتم علماء الاجتماع بدراسة تاريخ ثقافات الشعوب المختلفة من باب أن معرفة الماضي تساعد علي فهم الحاضر.

وليس من شك أن الثقافة الإسلامية ككل وثقافات الشعوب الإسلامية المختلفة، تمثل أنماطاً بارزة للثقافة المتصلة والممتدة بجذور قوية في الماضي، بل يكاد المراقبون ينظرون إلي الثقافات الإسلامية اليوم علي أنها أقدم الثقافات التي لا تزال موجودة في عالم اليوم دون تقلبات أو تغيرات حادة في مفاهيمها الأولي، ويرجع هذا بالطبع إلي سمو التعليمات الإسلامية التي تستمد وجودها من الخالق جل وعلا من خلال تشريع سماوي لم يقتصر علي العبادات وإنما تكفل بتوجيه السلوك الإنساني في المعاملات والعادات ونمط الحياة اليومية علي مستوي الفرد والمجتمع علي نحو ما نعرف جميعاً.

للثقافة دور سياسي أكبر من تصورنا

هل الثقافة خدمة؟ أم استثمار؟ أم اقتصاد؟ أم تنمية بشرية؟ أم سياسة عامة؟ أم أمن قومي؟ ربما كان مثل هذا السؤال واردا عندما يشكل مجلس الوزراء المجموعات التي يختصها بالنظر في القضايا العاجلة والملحة.. وربما لم يكن السؤال واردا،. ولعل الإجابة عن هذا السؤال تفيد من تأمل تجارب الدول السابقة، ونظرتها للثقافة وتأثير الثقافة في اقتصادياتها، وفي هذا الصدد فإننا نستطيع أن نلمح عشرة أمثلة هادية من خلال قراءة الأحداث الأخيرة عالميا ومحليا:

(١) هل يمكن لنا أن نأخذ درسا من معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، أليس هذا المعرض استثمارا جيدا ومدروسا؟ وفي الوقت نفسه أليس موردا من موارد السياحة والصناعة؟ وأليس المعرض بمثابة واجهة مشرفة لألمانيا علي جميع المستويات؟ إن المعرض يستقدم العرب ليلتقوا علي أرضه مع أن ٩٥٪ من العرب الحاضرين

لا يلمون بالألمانية، وكذلك ٩٥٪ من مثقفي القوميات واللغات الأخري.. لكن هناك لغة أخري تفوق اللغات المكتوبة وغير المكتوبة، تجمع بين هؤلاء البشر الذين يحضرون من جميع أنحاء العالم ليحضروا معرضا للكتاب في ألمانيا أو في غيرها، وهذه اللغة ليست إلا الثقافة.

(٢) هل يمكن لنا أن نأخذ درسا من أن فرنسا تحتل المرتبة الأولي بين الدول من حيث هي مقصد السياحة ومهوي أفئدة السياح؟ وهي - أي فرنسا - تتفوق بذلك علي الدول التي نعتبرها ويعتبرها العالم بل التاريخ مهد الحضارات في مصر والصين وإيطاليا واليونان، كما تتفوق علي أغني دول العالم في أمريكا واليابان، بل إن فرنسا من حيث السياحة تتفوق بخطوات واسعة علي السياحة الدينية إلي السعودية والقدس والفاتيكان.. والسؤال والجواب يكمنان في عبارة واحدة تقول بكل وضوح: إن الثقافة هي مفتاح هذا النجاح السياحي الساحق.

(٣) هل نستطيع أن نفهم أن الصراع الجديد الذي تفجر بين تايوان من ناحية، وبين الصين الشعبية من ناحية أخري ليس إلا نتاجا طبيعيا لاختلاف الثقافة علي الرغم من توحد الجنس واللغة والأرض؟ هل يمكن لنا أن نحذر من احتمال نشوب صورة مكررة من

مثل هذا الخلاف الكفيل بالقضاء علي مستقبل شعوب عربية تمضي في طريق بعيد عن التوحد الثقافي فإذا بها تواجه أزمات من قبيل أزمة دارفور وغيرها من الأزمات التي نعتبرها في بعض الأحيان نتيجة قصور أداء الدولة أو نتيجة نجاح مؤامرات الخارج، بينما الأمر من وجهة نظر الطبيب المتمرس يتمثل في غياب الارتقاء بالثقافة إلي الحد الذي يقبل التنوع كظاهرة صحية ولا يجعله نقطة لبداية الصراع.

(٤) هل يمكن لنا أن نتأمل أيضا في صورة الصراع المتجدد بين الهند وباكستان في ضوء غياب التعاون الثقافي المفترض وجوده بين دول الجوار؟ مهما كان ماضيها مشتملا للحروب ومشتعلا بالنزاعات العرقية والدينية.. هل لنا أن نقارن بين مثل هذا الوضع الحالي في شبه الجزيرة الهندية وبين وضع آخر مختلف تماماً أصبح يفرض نفسه في كثير من دول الاتحاد الأوروبي التي حاربت بعضها البعض طيلة عقود طويلة، وبات تاريخها حافلاً بالمواقع والوقائع والفظائع والقطائع، لكن الثقافة في النهاية تمكنت من أن تجعل كل هؤلاء يتجاوزون الاختلاف في سبيل البحث المشروع عن المستقبل الواعد أو الحاضر الزاهر، وهم يفعلون هذا من دون التنازل عن الهوية ولا عن الماضي ولا عن التاريخ ولا عن دروسه،

كما أنهم أيضا لا يتنازلون عن الجغرافيا ولا عن الحقوق.

(٥) هل نستطيع أن ننكر أن الأحداث الأخيرة في اليمن لم تنطلق إلا من بعد ثقافي يتحمل تبعته رجال الدولة المسئولين عن التعامل بجدية مع الفكر الديني ومع هذا فإنهم لا يفعلون وتكون النتيجة الطبيعية أن رجال الفكر الديني أياً ما كانوا يجدون أنفسهم مدفوعين دفعا إلي تحويل آرائهم إلي كائن ذي صوت مادام صوتهم العالي نفسه لا يسمع.. وهكذا يستسهل البعض من الذين أنهكتهم السياسة أن يجأروا بالشكوي بدلا من أن يلتفتوا إلي خطورة النزعات الاستقلالية التي تشق عصا الطاعة تحت مزاعم طوباوية جميلة.

(٦) هل نستطيع أن نقرأ في زواج «الوريثة العشرين» لعرش بريطانيا من رجل سبق له الزواج وهو في الوقت نفسه ممتهن لحرفة يدوية نوعا من الثقافة الأوروبية «العمومية» التي أصبحت تتخلي من ناحية عن دعاوي الأرستقراطية الملكية، وتتخلي من ناحية أخري عن الفروق الطبقية.. وهل نستطيع أن نفهم أن هذا التخلي وذاك لم يتحققا هكذا وعلي هذا المستوي إلا بالثقافة الشخصية التي وجدت صدي عميقاً في ثقافة مجتمعية تجنح يوما بعد يوم إلي الارتقاء كما تجنح إلي التخلص من بعض الموروثات

الكفيلة بتعويق التقدم؟

(٧) هل يمكن لنا أن نلقي نظرة سريعة علي الإنجاز الكبير الذي يتحقق في مبني دار الكتب المصرية القديم ، ونحن نري مبني جميلا يتحول إلي تحفة معمارية وثقافية وأثرية لا تكتفي بالشكل ولكنها بفضل الإخلاص ترتفع بطاقة المبني إلي ٢٨٠٪ من الطاقة القديمة وذلك عن طريق إعادة استخدام الموارد مع تطوير معماري داخلي يكشف عن عبقرية الأجداد الأقربين الذين سبقوا معاصريهم في كثير من مدنيات العالم المتحضرة إلي إقامة هذا الصرح الوطني؟

(٨) هل نلاحظ في المستوي المحلي مدي الرضا والحبور اللذين سيطرا علي قطاعات عريضة من الشعب المصري حين تنامي إلي سمعهم الخبر السار بافتتاح جهاز التنسيق الحضاري، وهي المهمة التي لم تكف فئات كثيرة من الشعب عن إبداء رغبتها في وجود مَنْ يتبناها في عصر بدأت الدولة فيه تعبر عن اهتمام صادق بالرقي الحضاري، وبالحضارة علي وجه العموم وتقديرا لمعطياتها؟

(٩) هل أدركنا قيمة ومغزي اهتمام القيادة السياسية بمدينة الأقصر بعد أن تنامي إليها صدي ومدي ما أصاب الأقصر في الآونة الأخيرة من تهاون؟ هل يمكن لمدينة مثل الأقصر أن تحظي

بهذا المستوي التنفيذي الذي مثله اختيار القيادة السياسية لرئيس الشئون المعنوية البارز ورئيس الأوبرا الناجح ليكون مسئولا عن مساعدة المدينة علي المضي بخطوات تنفيذية جادة من أجل مواكبة روح العصر؟

(١٠) هل لاحظنا مدي الاهتمام الشعبي والنخبوي بقرار سياسي وهندسي يتعلق بمبني مستشفي الشاطبي الذي يجاور مكتبة الإسكندرية؟ وهل لاحظنا أن كل المناقشات ركزت علي حيوية الوظيفة التي يقوم بها المبني دون أن تتطرق، شأن مناقشات الماضي، إلي حديث كاذب أو وهمي عن قيمة معمارية أو تاريخية لمبني حديث أنشئ لوظيفة محدودة ومحددة؟ وهل لاحظنا أن جميع الأطراف كانت منتبهة بقدر كبير إلي تقدير الحرص علي الموارد مع الإيمان الواضح بأهمية قيمة الجمال الفني والمعماري حتي مع اختلاف المنظورات والمفاهيم. وهل لنا أن نتذكر أن قرارات كثيرة في شئون مشابهة كثيرة قد اتخذت من قبل من دون أن يكون للرأي العام مثل هذا الجبروت الذي أصبح يقود الأمور إلي اتجاهات ونهايات لم يكن من الممكن تصورها من قبل في ظل أي نظام سابق؟

■

وبالإضافة إلي هذه الأسئلة العشرة فإن هناك أسئلة كثيرة تقود إجاباتها إلي فهم أعمق للدور الأكبر للثقافة.

المثقف العربي
و مأساة العراق

ثمة ثلاث حقائق ينبغي لنا أن نتأملها قبل أن ندخل إلي الموضوع.

● الحقيقة الأولي تتمثل في أن الحياة لا تستقيم من دون خيال، بل من دون وهم أيضًا، ومع هذا فإن القضاء علي الخيال وعلي الوهم لا يقضي علي الحياة نفسها ولكنه يقضي علي جزء كبير من مذاقها ومن نكهتها.. وقد يتعجب بعضنا من أن يكون للوهم هذا القدر من الأهمية مع أنه وهم، وهم يتجاهلون في هذا حقيقة الوهم، وهي أنه ليس حقيقة، ومع هذا فإن أصحابه يتصورونه حقيقة، ويبنون سعادتهم وحساباتهم علي هذا التصور، بل إن هذا التصور ينسحب أيضا إلي المعاملات التجارية والعلاقات الاقتصادية إلي الحد الذي عبر عنه ما جاء في الأثر من ذلك القول الجميل القائل: دع الناس في غفلاتهم يُرزق بعضهم من بعض.

● الحقيقة الثانية تتمثل في مدي حاجتنا إلي الأمل الذي لا يمكن للحياة السياسية ولا للحياة أن تمضي من دونه سواء تمثل هذا الأمل في القدرة علي المقاومة، أو في القدرة علي الحلم، أم في القدرة علي التحدي، أو في القدرة علي تصور خطأ الحسابات.. ومن العجيب أن الحرب الأخيرة قد حفلت بدرجات متعاظمة من الأمل في هذه القدرات، بل لا يمكن لأحد أن يفكر أن أية قدرة من هذه القدرات الأربع كانت كفيلة بتغيير مسار الحرب ولا تقول بتحويل الهزيمة إلي نصر.

● الحقيقة الثالثة تتمثل في الفوائد الإيجابية التي يمكن للشعوب أن تجنيها من ألمها، ذلك أن الألم هو أفضل معلم، بل ربما كان هو المعلم الناجح الوحيد الذي يمكن له أن يحقق نتائج مضمونة علي مدي زمني قصير إذا ما قيس هذا المدي بعمر الأمم، وليس خافيًا أن الهزائم التي لم ترتبط بالآم ذهنية وبدنية لا يمكن لها أن تحقق القدر الذي تحققه الهزائم المرتبطة بالآم عنيفة توقظ التأمل والتدبر فيما أوصل الأمور إلي ما وصلت إليه، وفيما ينبغي أن يكون من أجل ألا يتكرر ما تكرر من قبل.

■

في إطار هذه الحقائق الثلاث يمكن لنا أن نتصور الطيف

الواسع من التفكير الذي يراود المثقفين العرب بعد وقوع ما وقع في التاسع من إبريل وما بعد التاسع من أبريل.

والواقع أن أحدًا لا يستطيع أن ينكر حقيقة الانشغال الذهني التام بما حدث ومدي الاستئثار بالبال الذي تمكنت الأزمة من أن تحققه علي مستوي العقلية العربية، ويخطئ مَنْ يتصور أن هذا الاستئثار كان شيئا موقوتا انتهت تأثرياته ومظاهره بانتهاء المعركة علي نحو ما انتهت إليه دون أن يتخلف عنه قدر من الإدراكات العقلية الفعالة والكفيلة بأن تجري مجري الدم وأن تؤثر في الاستجابات والاشتراطات العقلية الممكنة تجاه كل موقف من المواقف المعاصرة..

كأني أريد أن أقول إن الأحداث الأخيرة ستترك في عقلياتنا ووظائفنا العصبية ذلك الأثر الذي يحدثه إدمان مادة كيمائية ما لفترة قصيرة بكيمات كثيرة.. وهو تقريبا ما يحدث نفس الأثر الذي يحدثه إدمان المادة ذاتها لفترة طويلة جدًا بكميات قليلة جدًا..

هل أبسط الأمر فأصور ذلك الذي تعود علي فنجان القهوة في الصباح فأصبح لا يستطيع الانتباه بدونه... هذه هي الفترة الطويلة والكيمات القليلة، أما الفترة القصيرة والكميات الكثيرة فيمكن تصويرها علي نحو هذا الذي حدث مع الروائي الذي أراد أن ينتهي

من روايته في وقت معين فأخذ يضاعف كميات القهوة (أو المنبه الحقيقي أو الوهمي كالتدخين) حتي وصلت إلي عشرين فنجانا طوال شهرين فإذا هو بعد هذين الشهرين قد أصبح بتركيب كيميائي جديد مسيطر علي مستقبلات أعصابه لا يمكن لها معه أن تعمل بدون هذا المنبه... حقيقيا كان أم وهميا. ونحن عندئذ نقول إن هذه المادة الفعالة أو المظنون فعاليتها قد أصبحت جزءًا من التركيب الكيمائي للجهاز العصبي لصاحبها.

■

والحق أن شيئا من هذا قد حدث علي مستوي الأجهزة العصبية للمثقف العربي بسبب الأحداث الأخيرة فقد زادت كمية الوعي التي أتيحت له علي مدي فترة قصيرة من الزمن لكنها كانت حافلة تماما بالأحداث والرؤي وزوايا الرؤي.. وهكذا قُدر لكل مثقف عربي تابع المعركة أن يقرأ مجموعة من الروايات العميقة بنفس بالقدر العميق من الموازاة والتركيز والاهتمام، وهكذا أصبحت لدي هذا المثقف مهارات استيعابية إضافية فيما يتعلق باستقباله لكل المؤثرات ولكل الأساليب التي تُستخدم من أجل التأثير.

بل لقد أصبح هذا المثقف - بفضل الهزيمة وما سبقها -

متسلحًا بخبرة من نوع فريد لم يتح له من قبل حين وجد نفسه قادرا تماما علي أن يري الحق يصور باطلا، وحين يري الظلم يصور إنجازًا، وحين يري التجاوز يسمي إدارة، ومع هذا فإنه يدرك أن كل مَنْ حوله يدركون ما يدركه من طبائع الأمور، ومن حقائقها كذلك، ولكنه لا يستطيع أن يتصور الحقيقة المجردة علي نحو ما يدركها وذلك لسبب بسيط هو أن أحدًا لا يسمح للحقائق أن تبدو في صورتها الحقيقة. وقد قيل إن الحقيقة جاءت في الزمن السحيق إلي الناس مجردة عارية ففزعوا منها فذهبت وارتدت ما ارتدته من ملابس.. وفي رواية أخري إن الناس هم الذين ستروها بالملابس لأنهم وجدوا أنفسهم فزعين من صورتها وهي عارية!!

الباب الثاني

الثقافة والجامعة

التوفيق بين التعليم العالي والثقافة في الوطن العربي

من قبل أن تحتل مؤسسات التعليم العالي متمثلة في الجامعات والمدارس العليا مكانتها المستقرة في المجتمع العربي ارتبط مفهوم التعليم العالي بالثقافة إلي حد كبير حتي أصبح أقرب وصف للمثقف علي ألسنة المشتغلين بالفكر ما يرادف ما نقوله الآن في وصف الشخص المتميز بثقافة عامة وتعليم جيد بأنه متعلم تعليما عاليا highly educated .. وحين بدأ التعليم العالي في البلاد العربية يتسع لأعداد لم يكن يتسع لها من قبل كانت أبرز الصيحات المطالبة بالتريث في هذا التوسع تستند إلي ضرورة الحفاظ في خريجي الجامعة أو التعليم العالي علي مستوي « المثقف » الذي يجمع إلي العلم الرفيع أو الدقيق أو المتبحر عنصر التوجه الراقي اللائق بخريج التعليم العالي أو الجامعي .. بعبارة أخري ضرورة الحفاظ علي الرجل « المثقف » في « خريج » التعليم العالي حتي يكون هناك دائماً حد فاصل بين التعليم العالي والتعليم العام يرتبط

في النهاية بالقدرة علي تبوء المكانة التي لا ينبغي أن يفرط المجتمع أو يتنازل عن قصرها علي طائفة من المثقفين الحقيقين الذين اتيحت لهم فرصة (لابد أن تبقي نادرة أو شبة نادرة) لتلقي تعليم عال وثقافة عالية في الوقت ذاته.

هكذا كان المفهوم في استراتيجيات التعليم العالي في البلدان العربية حتي منتصف السبعينيات (في مصر) وربما حتي أواخرها (في بعض بلدان الخليج) حين فوجئت هذه الاستراتيجية نفسها بالحاجة الملحة إلي زيادة أعداد الذين ينبغي أن يتاح لهم تعليم عال (من ناحية) أو الذين يرغبون في هذا التعليم (من ناحية ثانية) أو الذين يجب أن يؤهلوا بمثل هذا التعليم (من ناحية ثالثة) لأن الحاجة القومية في المؤسسات التنموية التي تسارعت في النشوء والازدهار في تلك الفترة صارت (وبأقصي ما يمكن للتاريخ أن يشهده من سرعة) ملحة إلي الحد الذي لا يطيق الانتظار .. وهكذا أصبح علي التعليم العالي أن يتسع في وقت واحد لثلاث مجموعات كبيرة من المقبلين عليه :

- مجموعة أولئك الذين استكملوا التعليم العام وليس أمامهم بد من أن يستكملوا التعليم العالي لأنه صار بمثابة الامتداد الطبيعي للطريق .. وبعبارة تقريبية وصفية يمكن القول بان التعليم

العالي صار بمثابة البديل الطبيعي بين البدائل المتاحة أمام هؤلاء لأنه أصبح يمثل الطريق الوحيد المعبد جيدا عند نهاية الطريق المعبد السابق عليه ، وفي التوصيف الاجتماعي ـ كما حدث بالفعل ـ فإنه يمكن لهذه الطائفة أن تمتد بمظلتها لتشمل أعداداً كبيرة جداً من الإناث الذين اتيح لهم بفضل ازدهار الالتزام المجتمعي تجاه تعليم البنات (الذي لم يؤخذ به في معظم البلدان العربية إلا منذ الخمسينيات أو الستينيات علي أقصي تقدير) وهكذا أصبحت للاناث في الفصول الدراسية أماكن مساوية للاماكن التي يشغلها الذكور بعدما كانت النسبة قبل عشرين عاماً لاتتعدي ١٠ ٪ علي أحسن تقدير ..

● وأصبح علي التعليم في البلدان العربية أن يستوعب كذلك المواطنين الطامحين إلي أن يوفر لهم التعليم الوظيفة والدخل .. وعلي حين كانت الوظيفة والدخل فيما قبل سنوات عشر متاحة بنسبة اكبر للشهادات الأدني فإن نهر الحضارة المتدفق ، وسياسات التحضير والتحضر المتسارعة أصبحت تفرض اليوم أن تكون الحاجة اكثر إلحاحاً إلي الشهادات الأعلي .. بل إنه أصبح من الطبيعي أن تطرد الشهادة الأعلي الشهادة الأدني عند التسابق علي شغل ذات الوظيفة .. ولم لا ؟

● كذلك ـ ومن ناحية ثالثة ـ فقد أصبح علي التعليم العالي في البلدان العربية أن يهيئ ، وبأقصي ما يمكن من سرعة ، الكوادر الشبابية القادرة علي تحمل المسئولية في المؤسسات الوطنية الناشئة في المجالات الحضارية الجديدة بدءاً بمؤسسات الإعلام والانتاج الفني والثقافي ومروراً بالمؤسسات الخدمية المتطورة (أو المجبرة علي التطور المستمر) في المطارات والموانى والفنادق .. الخ ، وانتهاء بالمؤسسات الصناعية العملاقة المرتبطة بالصناعات البترولية علي سبيل المثال .

■

علي هذا النحو نشأت (وبسرعة لم تكن معهودة من قبل) ولا تزال تنشأ مؤسسات متعددة ومتنوعة للتعليم العالي بحيث نجح الوطن العربي بالفعل في أن يستكمل كثيراً من الهياكل الفاعلة (والفعالة في بعض الأحيان) في الدوائر المتداخلة في هذا المحيط التنموي وقد كان هذا أحد الانجازات البارزة للمؤسسات التنموية العربية بقدر ما كان يمثل نجاحاً دءوبا يحسب للحكومات العربية التي تتحمل أقداراً متضاعفة من النقد دون أن تحظي بالثناء علي كثير من الإنجازات..

علي أنه فيما يتعلق بمؤسسات التعليم نفسها فان العين لاتخطئ قدرات بارزة علي النجاح في التوسع والتمدد والتجدد في مؤسسات غضة الإهاب وبنفس القدر وربما أكثر فقد استطاعت مؤسسات قديمة قائمة أن تتوسع علي عدة محاور بحيث ولّدت بطريقة قريبة في طبيعتها وآليتها من التكاثر البيولوجي مؤسسات جديدة أضافت إلي ما هو قائم ومنجز بالفعل .

وليس من شأن هذا الفصل أن يناقش حدود ومدي ما حدث من إنجاز في هذا المجال ، وإن كان يعتقد أن الرأي العام في محيط التعليم العالي يقدر تماماً حجم الإيجابيات في الإنجازات التي قامت علي أرض الواقع في الوطن العربي في هذا الصدد.. مهما وجه البعض الانتقادات سواء البناءة أو حتي المكتفية بالهجوم إلي بعض هذه المؤسسات في بعض الجزئيات التي هي في رأيي الشخصي لا تتعدي أن تكون من قبيل العيوب الصغيرة التي تلازم الإنجازات الكبيرة .

يبد أننا لابد أن نخرج من هذه المقدمة شبه التاريخية التي صورت لنا وضعاً متميزاً للتعليم العالي في منطقة محددة في فترة محددة من الحاضر إلي طرح تصوراتنا عن المدي الذي يجب أن ترتبط فيه الثقافة العامة ببرامج هذا التعليم العالي .

ماهو المقصود بالثقافة العامة في الوطن العربي ؟ :

لاشك أن مفهوم الثقافة العامة من المفاهيم القابلة للتغير من بيئة إلي أخري ولا يقف هذا التغير عند حدود المكونات التي تتكون منها هذه الثقافة أو « الكيف » الذي يميزها بما يرفع من قدرها أويسمها بما يجعلها شيئاً واضحاً ومحدداً ، وانما هو يتعدي ذلك إلي الكم أيضاً حيث تتباين الأقدار التي تسهم بها المكونات المختلفة للثقافة العامة تبعاً لعوامل اللغة والتاريخ والطبوغرافيا والعقائد الدينية والمذاهب السياسية والنمط الاقتصادي والتراث القوامي ... الخ ، بل إن التعريف التقريبي للثقافة العامة قد يختلف تماماً بين بلدين متجاورين تماماً وربما في نفس القطر ، ولهذا فإن من البدهيات العملية لمثل ما نتناقش فيه اليوم أن يتم اتفاق مبدئي علي عناصر محددة (وديناميه في الوقت نفسه) تكون كفيلة بأن تكون مع بعضها الجانب المعرفي الذي يمكن أن يسمي بالثقافة العامة والذي يصبح من الضروري (أو من المستحب .. أو من الواجب) توافره في المواطن الجامعي قبل أن يتخرج .

علي هذا النحو يمكن لكثيرين منا أن يتصوروا الآفاق المتصورة للثقافة العامة في التعليم العالي في البلدان العربية علي أنها الثقافة الكفيلة بتوافر حدود دنيا من المقومات التالية :

١ ـ الإلمام التام بالتاريخ القومي .. ومن البدهي أن هذا يشمل هذا التاريخ الاسلامي العام بصفة مشتركة بين كل الشعوب والأقطار العربية مع التركيز بالطبع علي دور كل شعب من هذه الشعوب في هذا الإطار العام .. كما يقتضي هذا الإلمام بحضارات الشرق الأدني القديم بصفات متفاوته تبعاً للاقطار العربية المختلفة التي كانت لها أدوار بارزة ومتميزة في هذا الاطار .

٢ ـ الديانات السماوية (وغير السماوية) والفهم الواضح للفروق الأساسية بين المذاهب المسيحية المختلفة ، وكذلك بين مذاهب الفقة الإسلامي الأساسية ، والفرق الإسلامية المنتشرة والإلمام بفكرة وافية عن التصوف والفرق الصوفية .

٣ ـ الأعمال الخالدة في الأدب الإنساني ، ولابد من الاحاطة العميقة بفصول (أو فقرات علي الأقل) من الإلياذة والأوديسا والشاهنامة والكوميديا الإلهية والشكسبيريات ومسرح راسين والأعمال الروائية المتميزة في جيل النهضة، بالإضافة إلي معرفة عميقة بالمعلقات والنقائض وأشعار المتنبي والمعري والبحتري وأبي تمام، وكتابات الجاحظ وعبد الحميد الكاتب والتوحيدي ... وحتي البارودي وشوقي وحافظ وطه حسين والعقاد وأحمد أمين ... إلخ .

٤ ـ الإحاطة بتطور الفن عبر العصور ، وتنمية حاسة إدراك

التمايز بين المدارس الأدبية المختلفة ، ونشأة المذاهب النقدية للفن ، وارتباط الفن بالحياة وعصور النهضة والانحطاط في الحضارات المتعاقبة .

٥ ـ فهم أساسيات الاقتصاد المعاصر ، بحيث يمكن للجامعي الفهم والتمييز بين سعر الفائدة المعلن وسعر الفائدة الحقيقي ، بين التضخم والازدهار ، بين الائتمان والاستثمار والخدمة المصرفية ، بين تحريك سعر الفائدة وخفض العملة .... إلخ .

٦ ـ الإلمام بأساسيات التعامل مع الكمبيوتر والحاسبات الآلية في المجالات الأربعة الرئيسية لتطبقات الحاسب : جداول الحسابات ، قواعد البيانات ، معالجة الكلمات ، الرسوم ... إلخ .

٧ ـ مبادئ الصحة العامة ، والإسعافات الأولية ، وطرق الوقاية والمعالجة المختلفة للأمراض بصفة عامة ودور الأجهزة الحديثة في العلاج ومداه .

٨ ـ فكرة ذكية عن التوازنات السياسية لدول العالم . وعن مواقعها وعواصمها ولغاتها ولهجاتها وديانتها ، والنتائج المترسبة من الحروب العالمية .. والأحلاف والتكتلات الدولية ودورها في السياسة الدولية .

٩ ـ إلمامة واعية بفلسفة التاريخ الإنساني ودور الحروب والأديان

والدعوات والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية في صياغة هذا التاريخ علي النحو الذي نعيشه اليوم .

١٠ ـ معرفة رفيعة بالرياضات الأولمبية والمحلية وقواعدها وتاريخها .

■

ولعل هذا يدفعنا إلي التساؤل عن السبل الكفيلة بتحقيق القدر المرتجي من إلمام الجامعيين بالثقافة العامة :

١ ـ كالعادة في تحقيق الأهداف النبيلة من خلال وسائل تشريعية أو قانونية فلربما نجد أنفسنا في البداية مضطرين إلي انتهاج الوسائل البيروقراطية الكفيلة بإدماج الثقافة العامة في المقررات الدراسية ولو إلي حين .. وقد نصدر في هذه الروح عن اقتناعنا بأنه من الممكن تربية الفضائل بالتكرار حتي تصبح عادة، ولهذا فإن المخطط الواعي لايمانع في إضافة بضع ساعات إلي المقررات الدراسية لتستوعب مثل هذه الجوانب من مكونات الثقافة العامة .

٢ ـ يبد أن هناك أسلوبا آخر ربما يكون أجدي وأكثر توافقا مع مرحلة التعليم الجامعي أو العالي وهو أن يُنبه الطلاب منذ أول العام الدراسي إلي أنهم سيؤدون امتحانات في نهاية العام في عدد

من كتب الثقافة العامة التي لا تستدعي تخصيص ساعات دراسية لها في المنهج الداسي وإن كانت موجودة في الامتحانات العامة .. وهكذا يمكن بشيء من التقريب والتجاوز بلورة الفرق بين الثقافة العامة وبين التعليم العالي النظامي بذكاء شديد في الوقت الذي يبقي للثقافة العامة مكان أكيد وبارز في مقومات النجاح والتفوق من دون إلقاء أعباء إضافية علي المعامل أو المدرجات أوهيئات التدريس أو الموازانات المالية ... إلخ .

وعلي سبيل المثال فانه يمكن لنا أن نشير إلي بعض الكتب الممتازة التي تستطيع الجامعة بها أن تضمن مستوي ثقافياً ممتازاً لخريجيها .. فبوسع الجامعة أن تختار كتاب الدكتور أحمد بدوي «في موكب الشمس» كمرجع للثقافة العامة عن التاريخ الفرعوني ، وأن تعهد إلي الطلاب بقراءة بعض كتب أحمد أمين للالمام بالتاريخ الإسلامي ... وهكذا .

٣ ـ ومع تقدم الزمن وتنامي تقدير أهمية الثقافة العامة في نفوس الأجيال المتواصلة من الجامعيين يصبح من اليسير علي الجامعة أن تستن من النظم ما تبدأ به تعديل لوائحها بحيث تصبح مواد الثقافة العامة من المواد المرجحة للتقدير العام بكل ما يترتب علي ذلك من فوائد للطالب الذي أثبت أنه متعلم تعليماً عالياً

بالفعل .. بيد أن مثل هذا الحافز يتطلب أن تكون البيئة العامة خارج الجامعة قد شارفت قدرة أرفع علي اختيار الأكثر نفعاً لسير الحياة ، وألا تكون الوظائف العامة مجرد أنماط تكرارية لا تتطلب من الخريجين إلا مجرد أنماط تكرارية أيضاً !! .

٤ ـ وبدءاً من الآن يمكن لنا أن نضع من التشريعات ما يمكن المجتمع من أن يحقق رغبته وأمنيته في أن تكون مواد الثقافة العامة من المواد المضافة للتقدير العام (لاحظ الفرق بين هذه الخطوة وبين الخطوة التي أشرت إليها في البند ثالثا الذي يقف عند حدود أن تكون مرجحة فحسب وليست مكونة للتقدير) وبهذا يمكن للطالب الطموح إلي شغل مواقع هيئات التدريس أو إلي الاستفادة من فرص الدراسات العليا المحدودة أن يهيئ نفسه بدءاً من مرحلة مبكرة في دراسة الجامعية للمرحلة الدراسية الرابعة المتمثلة في الدراسات العليا بالإكثار من معارفه العامة .. وبهذا يصبح مثل هذا الإكثار هو المحك الحقيقي للانضمام إلي الركب الجامعي في مرحلة الدراسات العليا ، ومن حسن الحظ (وربما أنه من طرائف الأقدار) أن التعليم العسكري العالي في بلادنا العربية يأخذ بمثل هذا المبدأ منذ مرحلة مبكرة ، ويتاح وضع أفضل في الترتيب العام للمتفوقين في الألعاب الرياضية بفضل إسهام درجات هذه

الرياضات البدنية في المجموع الكلي الذي يرتب علي أساسه الناجحون وتظل أقدمياتهم ترتب عليه حتي وقت تقاعدهم..

■

وفي كل الأحوال ينبغي لنا أن ننتبه إلي أهمية تنمية السياسات العامة علي نشر الثقافة العامة بين الجامعيين :

١ ـ فلابد من العناية بوجود مكتبة عامة في كل حرم جامعي وليس في كل جامعة فحسب ، ويقتضي هذا إنشاء أكثر من مكتبة مركزية في كل جامعة إذا تعددت الأحرام الجامعية ولابد من العناية بتزويد هذه المكتبة وتجديدها بكل ما من شأنه أن يرتفع بمستوي الثقافة العامة ، ولابد من توجيه الجهود نحو تسهيل عملية الاستعارة من هذه المكتبة وإطالة مدتها وزيادة عدد الكتب التي يتاح استعارتها إلي عشرة علي الأقل (بل إن بعض الجامعات الأمريكية لا تضع حدوداً للاستعارة معتمدة علي إمكانية الاتصال التليفوني لاستعادة الكتاب المعار في أي وقت) ويستلزم هذا إدارة دينامية نشطة واعية، واعتمادات غير قليلة (وغير كثيرة أيضاً) من السيولة النقدية تظل متاحة باستمرار تحت تصرف الإدارات العليا المسئولة عن المكتبات الجامعية .

٢ ـ لابد من العناية الحذرة بوسائط المعرفة المتجددة (الأفلام والشرائح والميكروفيش والميكروفيلم والفيديو وأقراص الليزر وبرامج الحاسب الآلي والانترنيت) دون أن تنفق أموال طائلة علي هذه الوسائط حين تكون وهي مستحدثة مرتفعة الثمن محدودة الفائدة إذا ما قورنت بالأجيال التالية من المنتجات التكنولوجية بدون جدوي حقيقية .

٣ ـ تشجيع إنشاء جوائز جامعية سنوية تمنح في مجالات الثقافة العامة علي ثلاث مستويات : (مستوي مساهمة المشتغلين بالثقافة العامة خارج الجامعة ، ثم مستوي هيئات التدريس ، ثم مستوي الطلاب) .

٤ ـ الحرص علي إتاحة أماكن متميزة المعمار والتشييد كفيلة بممارسة النشاط الطلابي في المجالات الاجتماعية والرياضية ، وقد كان في جامعة القاهرة علي سبيل المثال مبني كامل لنشاط اتحاد الطلاب (حول جزء كبير منه فيما بعد إلي مكاتب إدارية كما هي العادة في التضخم البيروقراطي الذي واكب إدارة التنمية علي يد حكومات الثورة المصرية) .. وكانت كلية طب قصر العيني تضم حماماً للسباحة أصبح عنصراً للمزايدة بين الجماعات الاسلامية وغيرها ... وهكذا .. وتأتي أهمية هذه الفكرة مما

يمكن أن نسميه الاقتناع العام بحتمية أن يصطبغ النشاط الطلابي أو الشبابي في داخل الجامعة بصبغة واضحة تحمل سمات مجتمع الجامعة من جميع النواحي .. ومن البدهي أن الشريحة السنية لطلاب الجامعة سوف تمارس نشاطها علي أية صورة .. ولكن وجود منافذ لهذا النشاط داخل أسوار الجامعة يظل بمثابة العامل المحدد الكفيل برفع مستواه من ناحية ، وإضفاء طابع الثقافة الرفيعة عليه ، والإ فإنه سوف يصطبغ بصبغات مختلفة أقل قيمة وفائدة من ناحية أخري ،ثم ينبغي وهذا هو الأهم إتاحة الفرصة الحقيقية والمثمرة لكل طلاب التعليم العالي لممارسة ما يودون أن يمارسوه من نشاط اقتداء بزملائهم الذين سبقوهم إلي هذا النشاط ، وهكذا يمكن لجوانب الثقافة والنشاط الإنساني بمعناها الواسع أن تجد سبيلها إلي أن تزدهر في الجامعة .

٥ ـ الحرص في اختيار المعيدين (وهيئات التدريس عند تعيينهم لأول مرة) علي أن يكونوا من طائفة المثقفين أو علي أقل تقدير من الذين يسيرون في هذا السبيل بخطوات واضحة ، والحذر كل الحذر من الديماجوجيين وذوي الثقافات الزائفة ، والعمل في الوقت ذاته وبسرعة مدروسة علي إعداد البرامج الكفيلة، بما يمكن

لنا أن نطلق عليه تجاوزاً أو تقريباً إسعاف أعضاء هيئات التدريس الحاليين بدورات مكثفة تعينهم علي أن يتداركوا ما في ثقافتهم العامة من نقص .. ولابد لنوادي هيئة التدريس وجمعياتهم من لعب دور متجدد فيما يسمي بالتعليم المستمر وتعليم الكبار من خلال ندوات مستمرة ومنظمة .. ومن خلال توجيه جزء من الميزانيات المتوفرة في هذه النوادي والدعم المتاح لها من أجل تحقيق النجاح المنشود في تثقيف هيئات التدريس وشبابهم يوماً بعد يوم .

٦ ـ إتاحة الفرصة لكل عضو من أعضاء هيئات التدريس والطلاب للحصول علي مجموعات من الكتب الثقافية العامة في حدود مبلغ معين (مائة دولار مثلاً) خصماً من موازنة الجامعة علي أن يكون لهؤلاء الحق في أن يحتفظوا بما يريدون الاحتفاظ به من هذه الكتب لأنفسهم أو يودوعونها مكتبة الجامعة لتضاف إلي رصيدها ، والانطلاق من هذا إلي إقرار سياسة تشجيع الجامعيين جميعاً علي اقتناء مكتبات ، وتوفير نماذج نمطية من أثاث المكتبات والمكتبات الكفيلة بإضافة البعد الحضاري إلي بيوتهم .. وإذا لم يكن من المتوفر اليوم تقديم مثل هذا الدعم فلا أقل من السعي لدي دور النشر الكبيرة من أجل توفير تخفيضات خاصة بموجب بطاقات الجامعة ، حتي ولو اقتضي هذا توجيه معونات

غير مباشرة إلي هذه الدور في مقابل تشجيع مثل هذا الهدف النبيل.

٧ ـ تخصيص وقت معين من الأوقات الحيوية والممتازة في الجدول الأسبوعي للمحاضرات (حيث تضمن الجامعة وجود أكبر عدد من الجامعيين) وذلك ليكون بمثابة الوقت المخصص لمحاضرة أسبوعية يُدعي إليها أحد نجوم الفكر في المجتمع وبذل الجهد الصادق لأن تكون هذه المحاضرة علي الدوام أحد أبرز أنشطة الجامعة في المجتمع المحيط بها ، والحرص علي حيوية هذه المواسم الثقافية بحيث يتناقل المجتمع صداها ، ويستلزم هذا أن يتولي مجلس الجامعة تكليف أحد رجال الجامعة المتميزين في المجتمع الثقافي (أو أكثر من واحد) بتنظيم التعاون مع الشخصيات الفكرية البارزة في الحياة العامة لضمان تدفق حيوية هذه المحاضرة أسبوعاً بعد أسبوع. وفي الجامعات ذات الأعداد الكبيرة ينبغي أن تتاح مثل هذه الفرصة في كل كلية أو في كل حرم جامعي علي الأقل.

٨ ـ الاتجاه تدريجياً إلي زيادة عدد ما يسمي بالأعضاء من خارج الجامعة في مجالس الجامعة ومجالس الكليات، وأن تتأثر عوامل اختيار هؤلاء الأعضاء بقدر اكبر بالبعد الثقافي للجامعة

وبتحقيق ارتباط الجامعة بالثقافة العامة والواقعية من حولها حتي لا تتحول الجامعة إلي برج عاجي (أو نحاسي) يذهب إليه هؤلاء لمجرد الاستطلاع ، وإنما كي تصبح بمثابة قلعة تحمي بأسوارها المجتمع الذي تطل عليه من كل التيارات التي قد يصادفها نجاح مرحلي خطر أوقلق يمكن أن يؤثر علي البنيان الفكري للحياة الجامعية .

٩ ـ تعميق وتوسيع علاقات التآخي بين الكليات الجامعية والمؤسسات الخدمية والانتاجية في المجتمع ، بحيث يصبح طالب قسم علم الاجتماع مثلاً علي دراية كاملة بكل ما تقوم به مؤسسات الخدمة الاجتماعية في المجتمع من حوله (بدءاً من رعاية الاحداث وحتي مصلحة السجون) وبحيث تتحول أفكاره النظرية والعلمية بالتدريج إلي ثقافة يستطيع في المستقبل أن يضيف بها إلي الثقافة العامة التي سيواجهها في المجتمع وبحيث ينمو في شخصيته بعد إنساني غير متخاذل ولا قلق .

الباب الثالث

الثقافة والحرية

حرية التفكير
والبحث العلمي

العلم جزء من المعرفة، لكنه متميز عن كل فروع المعرفة الأخري بأنه يبدأ بنظريات تتطلب التحقق من صدقها عن طريق أبحاث ودراسات كثيرة ومتوالية يجريها مَنْ هم قادرون علي الوصول إلي الصواب في أمرها، وهم الذين اصطلح علي تسميتهم بالعلماء، ولا يزال هؤلاء يجرون التجارب المتوالية والأبحاث والدراسات والمناقشات، وينشرون آراءهم ويتلقون التعقيب عليها بسعادة، ويعدلون من صياغتهم لأفكارهم بتوضيح هنا، وتخصيص هناك، وتصحيح هنالك حتي يصلوا إلي الصيغة الدقيقة التي تعبر عن الحقيقة التي اكتشفوها والتي يرون فيها إضافة للمعرفة الإنسانية، وعندئذ يصبح العلم معرفة، وتصبح المعرفة التي أمدنا بها العلم جزءاً من المعرفة الإنسانية التي لا تزال تتسع وتزيد وتتضخم مع الزمان. وقد قيل إن الفارق بين العلم وبين الأنواع الأخري من فروع المعرفة الإنسانية هو أن العلم يحتاج إلي هذه التجارب المتوالية لاختبار صحة النظريات، علي حين أن الأديان وكذلك الفنون علي سبيل المثال تقدم معتقدات وأفكاراً لا يمكن إثبات صحتها

بالتجارب، ولا تخرج محاولات العقل البشري فيها عن إطار التفلسف وإعمال قواعد علم المنطق، أو قواعد علم الجمال.

■

يستخدم العلماء مناهج عديدة في التفكير والعمل للوصول إلي اكتشافاتهم، ووضع النظريات. وهم يستمدون المعلومات من ملاحظة الطبيعة، ومثال ذلك أن قدماء المصريين والبابليين درسوا حركات الكواكب والنجوم، ومن هذا تعلموا التنبؤ بتغييرات الفصول، وعرفوا أفضل الأوقات للزرع، وجني الثمار والمحاصيل.

وتصنيف البيانات يساعد العلماء علي اكتشاف العلاقات القائمة بين شتي الحقائق. وقد جمع الكيميائي الروسي ديمتري مندليف، العناصر الكيميائية التي كانت تشترك في نفس الخصائص، ووضعها في خريطة خاصة تركت بها خانات بيضاء بدون عناصر معروفة. واكتشف العلماء فيما بعد تلك العناصر الغائبة، وبرهنوا بذلك علي أن تجميع مندليف كان صحيحاً. ويساعد استخدام المنطق العلماء علي استنباط النتائج مما لديهم من معلومات، وقد درس الفيزيائي الألماني فيلهلم وين مقدار الطاقة المنطلقة عند تسخين الأجسام الصلبة والسوائل، ووجد أن أحد حساباته

الرياضية يؤدي إلي خروج الرقم نفسه عند إجراء الاختبار نفسه، ومع أنه لم يستطع أن يختبر كل المواد، إلا أنه استطاع التحقق من ثبات الرقم مهما اختلفت المادة، واستنتج من ذلك أن الرقم الذي توصل إليه كان من «الثوابت».

ويُعتبر إجراء التجارب من الوسائل المهمة لتطوير النظريات العلمية. ففي القرن السادس عشر قام جاليليو بتجربة تتمثل في دحرجة عدة كرات ذات أوزان مختلفة فوق سطح مُنحدر فاكتشف أن كل الأجسام تسقط إلي الأرض بنفس المعدل (والاسم العلمي لهذا المعدل التي تزيد به السرعة هو «العجلة» وهو مصطلح يعني بالضبط: معدل الزيادة في السرعة)، إلا إذا كانت هناك قوة أخري توثر في تخفيف سرعتها.

ويلجأ العلماء إلي وضع فرض من الفروض أو افتراض ما لمساعدتهم علي النظر في التفسيرات المحتملة للتجربة، وهم يقومون بعد ذلك بوضع أسس التجارب الكفيلة بإثبات صحة الافتراض أو خطئه، ومن ثم يبنون نظرياتهم علي ما يصح من الفروض.

وقد اكتشف الفلكيون في أثناء رصدهم للكوكب «أورانوس» أن موقعه يتغير أحياناً في السماء، ومن ثم فقد افترضوا أن كوكباً

مجهولاً يؤثر في حركته، وأدي ذلك آخر الأمر إلي اكتشاف كوكب آخر هو الكوكب «نبتون».

■

وإذا أردنا أن نحدد مفتاح السر في نجاح العلم والبحث العلمي، فإننا لا نجد غير عنصر واحد هو حرية التفكير التي تمثل الضمان الأول لإبداع حقيقي في العلم وفي البحث العلمي، وقد عرّف العلماء والفلاسفة مهمة العلم في أنها رصد الحقائق وإقامة العلاقات فيما بينها، ولا يمكن أن تُرصد حقيقة دون أن تكون هنا حرية للتفكير في هذه الحقيقة، ولا يمكن أن تُحدد علاقة أو توصف دون أن تكون هناك حرية في اتخاذ الإطار الأنسب لهذا التحديد أو الوصف والتوصيف مهما كان هذا الإطار خارجاً عن المألوف أو المتوقع بحكم المألوف، بل إن تاريخ النهضة العلمية الحديثة لم يبدأ إلا حين آمن العلماء بأهمية حرية التفكير، وبالمدي الذي ينبغي أن تمضي إليه هذه التجربة حتي لو ناقضت ما هو شائع وما هو مستقر، ولم يعد مفهوم الجدة مقصوراً علي ما لم يكن معروفاً، وإنما امتد ليشمل التفكير بصورة جديدة فيما كان مجرد التفكير فيه وفي صوابه بعيداً عن خيال السابقين.

وفي مطلع عهد النهضة وبالتحديد سنة ١٥٤٣ نُشر كتابان

يتضمنان أفكاراً علمية جديدة في أوروبا، أحدهما هو كتاب وضعه كوبرنيق وعنوانه (عن دوران الأجرام السماوية) وهو الكتاب الذي أنكر فيه مؤلفه أن الأرض هي مركز الكون، كما كان معظم الناس يتصورون، ووضع نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس.

أما الكتاب الآخر فهو الكتاب الذي وضعه فيساليوس وعنوانه (في تركيب الجسم الإنساني)، وكان قائماً علي دراساته للتشريح، ويتضمن أدق معلومات متاحة في ذلك العصر.

■

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ازدادت أهمية استخدام التجارب وعلم الرياضيات، مما ساعد في إحداث ثوة علمية، إذ قام جاليليو بتحسين بعض آلات، مثل الساعة والتليسكوب، ولم تقتصر مكتشفات السير إسحاق نيوتن علي وضع قانون الجاذبية وحده، بل تعدت ذلك إلي دراسة العدسات والمنشورات التي أرست قواعد علم البصريات الحديث، وقد أثبت طبيب إنجليزي هو وليم هارفي أن للدم دورة في الجسم البشري، وقام بإيضاح هذه الدورة.

■

وكان عصر العقل الحر في تفكيره في أواخر القرن السابع عشر

وعلي امتداد القرن الثامن عشر، بمثابة حركة أدت إلي تغيير تفكير البشر، إذ قام العلماء بجمع كمية كبيرة من المعلومات العلمية ونشرها، وتطور علم الكيمياء الحديث.

واكتُشفت بعض المواد الكيميائية المهمة مثل: الأكسجين، والكلور، والهيدروجين، كما اكتشف العالم الفرنسي أنطوان لافوازييه طبيعة الاحتراق، وقانون بقاء المادة وهو القانون المعروف الذي يقول إن المادة لا يمكن أن تُستحدث أو تَفني، لكنها تتغير كيميائياً فحسب، كما وضع العالم السويدي كارولوس لينياوس منهجاً لتصنيف النباتات والحيوانات بادئاً بهذا ما سمي بعلم التقسيم.

وفي القرن التاسع عشر بدأ العلم في جني ثمار الترحال الذي يقوم به العلماء إلي شتي مناطق العالم لزيادة معرفتهم بالجغرافيا والنباتات والحيوانات.

وكان عالم الطبيعيات البريطاني تشارلز داروين من العلماء الذين شاركوا في رحلة علمية استمرت من سنة ١٨٣١ حتي ١٨٣٦، وانتهت بأن وضع نظريته التي اشتهر بها، والتي تقول بأن الحياة علي الأرض قد تعرضت للتغير بسبب عوامل طبيعية علي امتداد حقب طويلة، شأنها في ذلك شأن الأرض التي نعيش عليها، وأوضح ذلك في كتابه المشهور الذي أصدره وجعل عنوانه «أصل الأنواع»،

وقد شرح فيه نظريته في التطور، وكيف تغيرت النباتات والحيوانات عبر العصور. ووضع عالمان ألمانيان هما ماتياس شيلدن وثيودور شفان نظرية بيولوجية مهمة تقول إن جميع الأجسام الحية مكونة من خلايا.

■

وفي أواخر القرن التاسع عشر بدأ العلماء في وضع صورة جديدة للمادة، والواقع أن العلماء كانوا منذ القرن الثامن عشر يناقشون موضوع الجزيئات التي تتكون منها المادة، لكنهم اكتشفوا بحلول عام ١٨٩٠ وجود الإلكترونات والنشاط الإشعاعي، وأثبتوا أن الذرات ليست كتلاً صلبة صغيرة من المادة كما كان الناس يتصورون.

وقد خطا علم الفيزياء خطوات رائعة علي طريق التقدم في أواخر القرن العشرين، إذ سرعان ما تغيرت نظريات الضوء، وأثبت الفيزيائي ألبرت أينشتين أن دفقات الضوء المفردة تعمل عمل الجزئيات، وهي ما نسميه اليوم «فوتونات». كما تطور البحث العلمي في الذرة بسرعة، حيث تمكن علماء كثيرون من اكتشاف الجزيئات الأساسية في الذرات، وفهم نظم ترتيبها.

■

ثم شهد منتصف القرن العشرين انطلاقة كبري تمثلت في توليد الطاقة النووية. وفي الأربعينيات اكتشفت جماعات من العلماء الألمان والنمساويين إمكانية إطلاق الطاقة عن طريق تقسيم (انشطار) ذرات اليورانيوم. وفي الولايات المتحدة أنجز العالم الفيزيائي الإيطالي المولد أنريكو فيرمي والعاملون معه في عام ١٩٤٢، أول سلسلة تفاعل نووي يمكن التحكم فيه، كما اكتشف علماء الفيزياء جزيئات جديدة في الذرات.

وبدأ عصر الفضاء في سنة ١٩٥٧، حين أطلق الاتحاد السوفييتي أول قمر صناعي ليدور حول الأرض. وفي سنة ١٩٦٩ أصبح اثنان من رواد الفضاء الأمريكيين أول أبناء البشر الذين يسيرون فوق القمر، واستخدم الفلكيون التليسكوبات اللاسلكية في جمع معلومات جديدة عن الفضاء، وهكذا عرف التليسكوب اللاسلكي الذي هو مستقبِل للإشعاعات الكهربية من الفضاء، وهو يقوم بتحويل هذه الإشعاعات إلي صور مرئية.

ويسَّر اختراع الترانزستور إنتاج أجهزة صغيرة من الراديو والتليفزيون تعمل بالبطاريات، وآلات حاسبة للجيب، والحاسبات الإلكترونية (الكمبيوترات) عالية السرعة، وأحدث اختراع الليزر (أي أشعة الضوء الموجهة إلي نقطة بعينها) تغيرات مهمة في

مجالات كثيرة، مثل الأسطوانات الموسيقية، وبرامج الحاسبات الإلكترونية، والمعالجات الطبية والجراحية، والأسلحة.

■

ومن الضروري ونحن نتحدث عن حرية التفكير في البحث العلمي أن ننتبه إلي حقيقة أن **العلم الحي لا يخرج عن أن يكون بمثابة المنطقة القائمة بين المعلوم والمجهول**، وهنا أحب أن أستعير من الدكتور محمد كامل حسين وصفه للبحث العلمي بأنه: «كائن حي لابد له من وقت لينمو نموا طبيعيا، وأنه ليس بحثا عن كنز مدفون يكفي فيه التفرغ والعمل لنبلغ مكمنه أو نعثر فيه عن الحقيقة، بل هو عمل روحي مادي بطيء لا ينجح فيه إلا التشجيع الخفي القائم علي تهيئة الجو والوسائل وتركه ينمو علي طبيعته».

بيد أني أحب أن أنبه إلي أن حرية التفكير التي يجب أن تكون مطلقة ليست نمطاً من أنماط الانحياز إلي الرأي الذاتي بدعوي الحرية نفسها، لكنها

حرية ارتياد قبل أن تكون حرية اعتقاد،

وحرية تصور قبل أن تكون حرية ادعاء،

وحرية تفكير قبل أن تكون حرية تقرير،

لهذا فإن حرية الفرض العلمي تستدعي منا أن ننتبه إلي

الخصوبة في التفكير فبل أن نبحث عن منطق الصواب أو الخطأ فيه، وهنا أقتبس من محمد كامل حسين أيضاً تفريقه بين الفروض الخصبة والفروض الصحيحة حيث يقول:

«إن الأولي في البحث العلمي لا تكون الفروض الصحيحة من أول الأمر، بل قد يتصور العلماء عشرات الفروض قبل أن يتبينوا (أن) واحداً منها هو الصحيح، وإنما تُقبل الفروض من العلماء علي قدر خصوبتها، وأعني بذلك قدرتها علي فتح آفاق جديدة من البحث، وعلي الإيحاء بتجارب جديدة توحي بدورها فروضا خصبة أخري حتي تنجلي الحقيقة. أما الفرض العقيم فهو كالطريق المغلقة، لا يلبث أن يتبين للسائر فيه أنه لا يؤدي إلي أي شيء».

ويزيد محمد كامل حسين هذه النقطة وضوحاً فيقول:

«والعلم مملوء بالفروض الخصبة التي ثبت بعد ذلك أنها خطأ، وفي ميدان العلم لا يُطبق المبدأ الذي يحرص عليه الفلاسفة والأخلاقيون والقانونيون وهو أن ما بني علي الخطأ فهو خطأ، وأكثر الفروض الخصبة التي أدت إلي نظريات عامة عظيمة ثبت بعد ذلك أنها لم تكن في الواقع صحيحة تماماً. ومن أخصب الفروض الصحيحة فرض تكوين الذرة علي أنه كالنظام الشمسي تدور فيه الإلكترونات حول النواة، وقد أدي هذا الفرض إلي كشف

أكثر ما هو معروف عن الذرة، ثم تبين أن هذا الوصف تقريبي، وأن هناك صعوبات في قبوله، ولم يعد يصدق به أحد من العلماء اليوم علي أنه يمثل الواقع، وإن كان فرضا خصبا جدا».

« هذا مثل من أمثلة الفروض الخصبة التي هي خطأ، والتي أثرها علي العلم مع ذلك كبير جداً، وليس هذا مثلا منفردا، وفي الطب اختبارات قامت علي نظريات ثم ظهر أن النظرية خطأ وبقيت الاختبارات صحيحة، كما في تفاعل فاسرمان».

■

علي هذا النحو يفتح لنا محمد كامل حسين المجال لنفهم أن حرية التفكير، حتي لو كان التفكير نفسه خاطئاً، **مفيدة للعلم، لكنها ليست مفيدة في حد ذاتها**، وإنما تتأتي الإفادة من خصوبة الفروض وقابليتها لبدء سلسلة جديدة من الفهم العلمي لما يتعرض له كل علم.

وليس من السهل المفاضلة بين الفروض العلمية لنعرف العقيم منها، والخصب المفيد، حتي لو كان كلاهما خطأ، ولا يقوم هذا التفاضل إلا علي الخصوبة، أي القدرة علي فتح الآفاق العلمية الواسعة التي تتجلي فيها الحقائق الكبري.

وكما يعلي كامل حسين من قدر مرتبة «الفروض الخصبة» فإنه

يستند في هذا الرأي إلي أن التجارب المنقطعة أو التي تجيء صدفة لم تعد تحدث في البحوث الحديثة إلا نادراً مثل اكتشاف البنسلين، ولهذا فإنه يؤكد أن البيئة العلمية التي لا تنشأ فيها هذه المرتبة من البحث العلمي تظل عالة علي غيرها، ولا يمكن أن يكون لها استقلال علمي ما لم ينشأ فيها علماء قادرون علي هذا النوع من الفروض ووضعها موضع الاختبار، وهو أمر يرتبط في المقام الأول والأخير بما نسميه «حرية التفكير».

■

وترتبط حرية التفكير والعلم والبحث العلمي ارتباطاً وثيقاً بالنظم السياسية نظراً للحقيقة التي لا نستطيع إنكارها، وهي قيام الحكومات بالتمويل الكامل للمشروعات العلمية، وهنا يدخل طرف ثالث في العلاقة بين حرية التفكير والبحث العلمي، وقد أجاد **الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن** الحديث عن هذه العلاقة في محاضرة له ألقاها في عام ١٩٤٨ قبل أن يصبح سكرتيرا للحكومة في منتصف الخمسينيات ووزيرا للتخطيط في منتصف السبعينيات، وهو يقول في حديث له أمام المجمع المصري للثقافة العلمية ما نصه:

«وفي رأي صادف قبولا أخيرا أن **العلم مثل إقامة العدل**، يقوم

أصلا علي ضمير المشتغل به، **وعلي الدولة أن تسنده بقوتها دون تدخل في موضوعه**، والقضاء يفصل بين الناس، والعلم يفصل بين الأجيال السابقة والأجيال القادمة، فينبغي لذلك أن توفر الحكومة للعلماء الضمانات والسلطات التي تسمح لهم بالعمل بنفس رضية، وضمير خالص ، وإلا انصرف العلماء عن العلم إلي غيره من أبواب الرزق التي تطلب جهداً أقل، وتعطي رزقاً أوسع، وبذلك تفقد الأمة العنصر الأول للنهضة والبقاء، كما حدث عندنا في حالات كثيرة ماثلة أمامنا».

«وإذا تدخلت الحكومة في الخطط العلمية أو حاولت تنفيذها بطرقها الإدارية وأساليبها العتيقة يضيع المال ويقضي الوقت هباء كما هو مشاهد فعلا في بعض مصالحنا الحكومية».

«ومن رجال العلم مَنْ ينظرون إلي غيرهم من أصحاب المهن المماثلة كالطب والمحاماة والهندسة والتعليم فيظهر لهم أن المركز الاجتماعي لهذه المهن قد اعترف به رسميا، وأن كيانهم الاقتصادي قد تدعم بفضل ضغطهم المتواصل وتحزبهم واحتشادهم في جمعيات أو نقابات فيتجهون حتماً إلي التفكير في مثل هذه السياسة التي تمليها عليهم حاجات المعيشة وضرورات الحياة ويدللون علي صحتها بما هو حادث فعلا في الدول الأخري. إذ قد

تألفت جمعيات للمشتغلين بالعلم في أربع عشرة دولة (كان هذا قد حدث قبل ١٩٤٨) واعترف لبعضها بالصفة الكاملة للنقابات المهنية وكون اتحاد دولي لتلك الجمعيات عقد عدة اجتماعات ومؤتمرات لبحث موقف محترف العلم في المجتمع الحديث وكيفية تنظيم هذه المهنة بما يحقق رسالتها الاجتماعية والثقافية والإنسانية. وقد تضاربت الآراء في تقدير مبلغ نجاح تلك الجمعيات، ولكن قيامها ونشاطها هو ذاته دليل علي أن العلم قد أصبح حركة كاملة وينبغي أن ننظر إليه دائماً تبعا لذلك، وعلي أن العلماء كأصحاب حرفة يعبرون عن تلك الحقيقة الواقعة باتجاههم النقابي».

ويصل الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن إلي جوهر أو حدود ما يتطلبه الباحثون في العلم والمشتغلون به من حرية فيقول:

«والقول بأن (اضطلاع) الدولة بالعلم لا يعني تدخلها في شئونه،وتحكمها في أموره، كما أن إقامتها بالعدل بين الناس لا يعني تدخلها في سير القضاء، ولا تحكمها في القضاء، فالقاضي يحكم بالعدل تبعا لقانون يتحدد بالطرق التشريعية وفقا للأصول الفقهية المرعية، والعالم يبحث عن الحقيقة ويستزيد من المعرفة تبعا لإجراءات تتحدد شكلا بالطرق الحكومية وفقا لأصول الطريقة العلمية التي تقوم علي فرز الحقائق، وفرض النظريات واختبارها

بالتجربة. فينبغي تبعا لذلك أن تكفل حرية الباحث كما تكفل حرية القاضي، وبدون هذه الخريطة المنظمة لا يكون عدل ولا علم».

■

ومع كل هذا فإن **البحث العلمي لا يمكن أن يوجد أصلاً بدون حرية للتفكير**، فما بالنا بممارسته، كذلك فإن حرية التفكير هي حجر الأساس في تنظيم «مؤسسة» البحث العلمي وحركة هذا البحث، وهنا أستعير فقرة من محاضرة للدكتور علي مصطفي مشرفة ألقاها في المجمع المصري للثقافة العلمية (١٩٤٢) بعنوان «تنظيم البحث العلمي وأثره في تطور المجتمع» حيث يقول:

«إن تنظيم البحث العلمي إنما هو تنظيم لناحية مهمة من تفكير المجتمع، وربما كانت أساس كل تقدم حقيقي للبشر , **والتفكير في كل أمة هو مظهر حيويتها وعنوان رقيها**، فالأمم الجاهلة المتأخرة لا تعني بأمر الفكر وإنما يعنيها من الحياة أمور مادية ملموسة ترتبط بحياة الفرد، ثم إذا هي فكرت فإنما تفكر كأفراد متفرقين متباعدين، لذلك يكون التفكير عقيماً ويبقي ذكر الأمة خاملا. والأمم الجاهلة المتأخرة يكون تراثها الفكري الخرافة والأساطير (التي) لا تمت إلي الحقيقة الواقعة بسبب، ثم إذا ارتقت الأمة سلّم الحضارة ارتقي الفكر فيها وتحول من دور الفرد إلي دور

الجماعة وارتبط بالحق وبالواقع فزالت الخرافة وأُحلّت الأساطير محلها الطبيعي فسارت أدبا شعبيا، أو اكتسبت رونقا من العاطفة والجمال. ومن أهم مظاهر ارتقاء الفكر في أمة إنشاء الجماعات والهيئات التي تعمل علي تبادل الرأي، وتوجيه الفكر والبحث والاستقصاء لازمان من لوازم التفكير المنتج. وفي رأيي أنه لا يمكن تصور الفكر غير مقترن بالبحث إلا أن يكون فكرا منحلا مضمحلا، وكل أمة هجرت البحث مقضي عليها بزوال التفكير المنتج فيها».

■

هكذا **يربط علي مصطفي مشرفة بين حرية الفكر والتفكير وبين البحث ربطا أبديا حتي يصل إلي القول بأن الفكر غير المقترن بالبحث لا يمكن إلا أن يكون فكرا منحلا مضمحلا، وإلي القول بأن هجران البحث يفضي مباشرة إلي زوال التفكير المنتج.**

ويزيد الدكتور علي مصطفي مشرفة هذه الفكرة إيضاحاً فيقول:

«أذكر أن أحد مفكري الإنجليز ـ ولعله الشاعر المعروف كيبلنج ـ حاول مرة في محاضرة له علي طلبة جامعة سانت اندروز باسكتلندا أن يفسر هذه النزعة المادية في البشر فحكي الحكاية

الآتية، قال: حدث أن الجد الأكبر لقبيلة القردة التي انحدر عنها البشر وكان يعيش في الحراج والأدغال ويتخذ لنفسه ولأسرته مكانا في أعلي شجرة، حدث لهذا القرد أنه كان يقفز من فرع إلي فرع من فروع الشجرة فانزلقت قدمه وكاد يهوي إلي الأرض، فاعتصم بأن قبض بيده علي فرع متين من فروع شجرته وبذلك نجا من السقوط. فهذه القبضة باليد علي شيء مادي هو فرع الشجرة، هذه القبضة المنقذة من الهلاك، هي منشأ تعلق البشر بالمادة الجامدة الملموسة المنقذة. هذه حكاية طريفة اخترعها عقل هذا المفكر لكنها ذات مغزي عميق، فالتعلق بالمادة غريزة بشرية متأصلة في النفس، لكنها منحدرة عن حياة القردة، ولست أريد أن أقلل من شأن المادة إذ هي اللغة الأخيرة التي يُترجم إليها كل رقي وكل تقدم للمجتمع، ولكن علينا ألا ننسي أنها حلقة أخيرة في سلسلة متصلة تبدأ بالفكر المجرد، وتنتهي بالفكر المتصل بالحقيقة الواقعة، أو بعبارة أخري تبدأ بالبحث العلمي البحت ثم تتعدي نطاقه إلي البحث العلمي التطبيقي إلي أن تصل إلي دور التنفيذ المادي. والشيء الذي يريده هؤلاء العمليون منا هو أن نأتي بمعجزة فنرقي دون سلم ونصل إلي الغاية دون أن نبدأ . هم يريدون النتائج بغير الأسباب، وقد جعل الله لكل شيء سببا، فنحن في مصر إذا

أردنا أن تكون لنا الرفاهية المادية التي لغيرنا، وجب علينا أن نبدأ حيث بدأ غيرنا، وأن نسلك السبيل الوحيد الذي يؤدي إلي القوة والرفاهية المادية، وهذا السبيل يبدأ بالفكر، ويبني علي البحث العلمي البحت والتطبيقي».

■

أختم حديثي هذا بجوهر القضية في العلاقة بين حرية التفكير والبحث العلمي بفقرة من كتاب عالمنا المعاصر الذي بلغ الثريا في العلم وحاز أرقي مظاهر تقديرنا وجوائزنا وهو **الدكتور أحمد مستجير** حيث يقول في كتابه «دفاع عن العلم»:

«... يُصَور العلماء كثيراً علي نهم أناس بلا روح ولا خيال، هم آخر من نتوقع أن يقرأ الشعر، ناهيك عن كتابته، يقال: إنه ليس بين العلماء مَنْ يتصور أن الشعراء «يفكرون»، أو أن الشعر ذاته فن صارم ومنضبط للغاية.. فهل هذا صحيح؟ كان فرانسيس بيكون يقرض الشعر، ومثله كان جيلبرت هوايت، وجيمس كلارك ماكسويل،والسير جوليان هكسلي، كتب تيم رادفورد في جريدة «الجارديان» في ٢ سبتمبر ١٩٩٣ يقول: إن أشهر الشعراء عام ١٧٩٣ لم يكن ويردزورث، ولم يكن بليك، إنما كان عالما اسمه إراسموس داروين. كان كتابه «حديقة النباتات» الذي نشر عام

١٧٩٢ من أكثر الكتب رواجاً، وجودة ما فيه من شعر كانت لاشك هي السبب».

«ثم كان هناك من الشعراء أيضا مَنْ استمد الإلهام من العلماء وأفكارهم. كتب بيرون عن زواحف ما قبل التاريخ التي أطلق عليها الديناصورات،كان صمويل تايلور كولريدرج يحضر محاضرات دافي بحثا عن أفكار جديدة، أما شيلي فقد مضي حتي لأبعد من هذا، لقد أجري تجاربه العلمية الخاصة ثم صاغها شعرا. ما وجه العجب؟ الرواد من كل مهنة كثيرا ما يكونون مثقفين كبارا يحبون الفن والموسيقي والأدب والعلم، **إبداع العلماء والفنانين يفيض في نفس النبع**».

■

الباب الرابع

الثقافة والمعلومات

هل يبقي الكتاب العربي
بعد انتشار الكمبيوتر ؟

منذ أكثر من ثلاثين عاماً لخص أحد خبراء المعلومات الثورة التي حدثت في الكمبيوتر بطريقة طريفة، ولكنها كانت صادقة ودقيقة بنفس القدر.. قال هذا الخبير: إنه لا يمكن أن يصور مدي التقدم الذي حدث بنفس الطريقة التي يصور بها تقدما آخر، ولكنه مع هذا يمكن له أن يصور الأمر إذا لجأ إلي التشبيه.. وفي هذه الحالة فإنه يمكن له أن يقول إنه لو كان التقدم الذي حدث في مجال الكمبيوتر قد حدث في مجال الطيران المدني ـ علي سبيل المثال ـ لكان بالإمكان أن يسافر الإنسان من لندن إلي نيويورك في دقيقتين فقط وبدولارين فقط..

غني عن البيان أن نقول إن هذا كان من ثلاثين عاماً بالضبط، وغني عن البيان كذلك أن نذكر أن الثورة المستمرة التي اشتعلت وانفجرت وازدهرت (.. إلخ) في العقود الماضية، تفوق بكثير ما كان قد تقدم في السنوات التي سبقتها بمراحل شاسعة.

في وطننا العربي لم يتأخر الإنسان العربي عن اللحاق بهذه الثورة..

ولكن خطواته كانت بطيئة في بعض الأحيان.. ومتعثرة في البعض الآخر.. ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن الاستيعاب العربي لثورة المعلومات كان مرضيا إلي حد كبير..

وعلي سبيل الجزم يمكن لنا القول بأن استيعاب العرب لثورة المعلومات يفوق بمراحل استيعابهم للثورة الصناعية، وهي الثورة السابقة علي ثورة المعلومات في مسار البشرية..

كما أننا نستطيع أن نجزم أيضا بأن إسهام العرب في صياغة ثورة المعلومات لن يقف عند حدود الانفعال وإنما سيتخطي هذه الحدود إلي دائرة الفعل.. وربما يمكن إرجاع السبب في هذا إلي طبيعة ثورة المعلومات نفسها التي يمكن أن نلمح بسهولة من بين خصائصها عددا مهما من العناصر البناءة:

- فهي ثورة ذات طبيعة استيعابية أكثر منها استبعادية.. بعبارة أخري فإنها لا تنعزل بأصحابها، ولكنها تمتد بمظلتها لتغطي وتشرك آخرين في الانتفاع بمواردها.. ومن ثم بفوائدها.
- وهي أيضا ثورة سريعة الانتشار، إذ إنه لا يمكن البقاء بمعزل عن آثارها التي تتناثر لتغطي كل الأرجاء الممكنة من نشاط الإنسانية.
- وحين تفعل ذلك فإنها سرعان ما تأخذ الزمام بيدها لتصبح بمثابة الفعل (القائد) في دائرة الأفعال المتصارعة.

● هذا فضلا عن أن تكلفة المشاركة في الثورة الجديدة تكاد تكون أدني تكلفة عرفتها البشرية للمشاركة في تقدم جديد.. فهي لا تدمر البيئة ولا حتي تلوثها.. وهي لا تستعبد البشر ولا حتي تستنزف بعض طاقاتهم، بل علي العكس من ذلك، فهي توفر للمشاركين فيها كثيرا من عوامل الأمان والسلامة والوقت والجهد.

وبطبيعة الحال فإن توظيف ثورة المعلومات في العالم العربي قد أخذ صورا متعددة.. وربما تميز قطاع المال بأنه حقق الاستخدام الأقصي لهذه الثورة.. وربما بدأت الفنون التطبيقية تتأثر إلي حد بعيد بالأسلوب الذي أتاحته هذه الثورة في أداء وإدارة الأعمال.. وبالطبع فإن الممارسات الطبية والهندسية لا تخرج عن هذا النطاق.

■

ولكن ربما ظل الكتاب ليمثل موقع الصراع الحقيقي مع الثورة الجديدة بكل ما تملكه من عرمرم الجيوش والجنود!!

وعلي حين أن مجالات نشاط الثورة الجديدة قد استطاعت أن تتوافق إلي حد كبير مع طبيعتها الغلابة، فإن العاملين في مجال الكتاب العربي مازالوا يقدمون رجلا ويؤخرون أخري وهم يستشرفون طبيعة العلاقة مع الثورة الجديدة.

● فمن ناحية نجح النشر العربي إلي حد كبير في أن يستغل

الإمكانات الهائلة التي قدمها الكمبيوتر وأحدث بها قفزة هائلة في النشر والطباعة والإخراج.. ومع هذا فقد عاني العرب من تخلف البرامج Software إذا ما قورنت بمثيلتها التي تتعامل باللغة الإنجليزية أو الفرنسية.. ولم يكن السبب غائبا عن الأذهان.

● ومن ناحية أخري قدمت الصحافة العربية ودور النشر منتوجات متميزة بفضل استعمال التقنيات الحديثة التي أتاحتها ثورة المعلومات.

● ومن ناحية ثالثة فإن معدل النمو في سوق الكمبيوتر والبرمجيات والمنتجات المعلوماتية كان مقبولا وإن لم يكن مرضيا.

ومع هذا فقد ظلت السوق العربية ـ ولا تزال ـ بحاجة شديدة إلي أن تشهد المنتج الثقافي الذي كان ينتظر أن تحققه ثورة المعلومات.

وللأسف الشديد فإن العرب لا يستطيعون أن يجزموا (فضلا عن أن يدعوا) أنهم قدموا شيئا ذا بال في هذا المجال.

وكما أن الأعذار تبقي مقبولة، فإن الأسباب تبدو مفهومة.

■

في السنوات القادمة لن يكون هناك مجال للتراجع عن خوض معركة المعلومات بطرق متعددة.. وتشير بوادر المشاركات العربية إلي أن المجال المفضل عند الناشرين سيكون هو ميدان استخدام الوسائط الجديدة كبدائل للوسائل القديمة.. بعبارة أخري لا يمكن نفي صفة

الاختزال عنها، فإن التفكير العربي اتجه إلي تقديم ما كان يقدم في صورة كتاب ليكون في صورة شريط كمبيوتري (سواء في هذا القرص المضغوط أو الأنواع والبدائل الأخري من الأقراص).

ومع أن مثل هذا الجهد قد يمثل إنجازا في حد ذاته إلا أنه يظل بمثابة الاستغلال الساذج لثورة المعلومات.. بل ربما صدق عليه المثل القائل بأنه استخدام للطائرة في الوصول إلي مسافة لا تبعد أكثر من خمسين كيلومتر مثلا حيث يصبح هذا الاستخدام أكثر إهدارا للمال فضلا عن أنه إهدار للوقت وللجهد كذلك.. ذلك أنه مع كل الإمكانات الهائلة التي قد يتيحها الطيران فإن النقل البري يظل ـ عندما يتعلق الأمر بخمسين كيلو متر ـ متفوقا في كثير من المعطيات والنتائج.

وليس هذا هو كل ما يتفوق به الكتاب علي الكمبيوتر.. ذلك أن الكتاب ـ وللأبد ـ يبقي متفوقا علي الكمبيوتر في عدة معطيات حيوية:

- يظل الكتاب ـ علي سبيل المثال ـ أقرب وأقدر علي الخلود من كل الوسائط التي أتاحها الكمبيوتر حتي الآن.. وعلي حين أننا نعرف أن بعض المخطوطات قد عاشت ألوف السنين فإن أقصي عمر مفترض لوسائط الكمبيوتر ـ مع كل هذا التقدم ـ لا يتجاوز خمسا وعشرين سنة في القرص البصري.
- يظل الكتاب ثانيا متمتعا بالميزة الهائلة التي يفتقدها الكمبيوتر

في أنه يقوم بنفسه بوظيفته دون حاجة إلي آلة يمكن من خلالها تشغيل الوسيط البديل.

● يظل الكتاب ثالثا محتكرا وربما للأبد بما يمكن أن نسميه بالتأثير البصري لمحتواه، فنحن نقلب الكتاب أو الصفحة لنصل إلي الموضع الذي نجد فيه ما نريده، علي حين يصعب هذا علي الكمبيوتر.

● يظل الكتاب أيضا ـ وهذه هي النقطة الرابعة ـ مقروءا بلغة واحدة، أي أنه يمكن للعربي الذي لا يعرف إلا لغته أن يقرأ كتابه، وكذلك للإنجليزي والفرنسي.. أما في حالة الكمبيوتر فإن القارئ يظل بحاجة إلي لغة أخري هي لغة الكمبيوتر نفسه التي تترجم البايت أو الثقوب أو الأوامر أو الشبابيك إلي اللغة الأم.

وهكذا فإن حلول الكمبيوتر محل الكتاب ليس مستحيلا، بسبب ضخامة ثروة المعرفة التي حوتها الكتب علي مدي القرون الماضية، فربما كان هذا ميسورا وإن استغرق بعض الوقت.. ولكن طبيعة الكمبيوتر نفسه هي التي تمنعه من أن يحل محل الكتاب.

ومع هذا فلابد أن ينتبه العرب إلي استعمال الكمبيوتر في المجالات التي لن يستطيع الكتاب أن يتفوق فيها عليه.

الثقافة ومستقبل صناعة المعلومات الوطنية

من حسن حظ المجتمع العربي أنه لم يحل بين نفسه وبين إدراك حقيقة عصر المعلومات الذي بدأ يسيطر علي الحضارة الإنسانية، كما كان من حسن حظ هذا المجتمع أنه لم يتأخر طويلاً في الاندماج في هذا المجتمع استهلاكا وإنتاجا، بل يمكن القول إن بعض البلدان العربية شهدت سباقاً محموداً نحو اللحاق بهذا العصر.

ويتعلق أمل كبير في تنمية مستقبلنا الحضاري بالقدرة علي التفوق في صناعة المعلومات باعتبارها صناعة المستقبل في العالم، ومع كل تقديري لهذا الأمل ولأهمية التعويل عليه من ناحية، والاهتمام الكافي به من ناحية أخري، فإننا نجد أنفسنا في حاجة إلي تأكيد مجموعة من المحاذير التي لابد من وضعها في الاعتبار عند صياغة تفكيرنا القومي في هذا الجانب:

(١) أول هذه المحاذير هي أن ندرك أن صناعة المعلومات رغم كل جاذبيتها وبريقها وسطوتها وسيلة وليست غاية، وهي وسيلة ناجحة وفعالة إلي أبعد الحدود، ولكن لابد من تحديد غاية تستغل من أجلها، الأمر في هذا شبيه بالطائرة أو السيارة أو أية وسيلة من وسائل المواصلات التي لا تعني حركتها الدائبة شيئا إلا أن تكون ذات هدف ومن أجل تحقيقه.. هكذا صناعة البرمجيات علي سبيل المثال، فلابد أن يكون هناك طلب علي البرمجيات المنتجة وإلا فقدت الصناعة أهميتها وقيمتها.

(٢) ثاني هذه المحاذير أن ندرك أننا لا نستطيع تقديم أي نوع من أنواع الحماية الجمركية لصناعة المعلومات، ويكفي في هذا الصدد أن ندرك حقيقة سطوة شبكة الإنترنت وكيف يمكن لها أن تحول بيننا وبين أية محاولة لتقييد تدفق المعلومات من أي مكان، وفي أي وقت، بل إن الأمر في هذا قد وصل إلي حد أننا نغلق أجهزة الاتصال ثم نفتحها فنجدها تنبئنا أن رسالة أو رسالات قد وصلتنا واحتفظت لنفسها بموضع في بريدنا في أثناء إغلاق الأجهزة.. هكذا ينبغي لنا أن نفهم مدي سطوة

صناعة المعلومات وقدرتها علي النفاذ والاتصال متغلبة علي كل ما يمكن لنا أن نتخيله من قيود توضع عليها.

(٣) ثالث هذه المحاذير يرتبط بمدي قدرة الحياة الإنسانية علي استيعاب أعداد متزايدة من مصممي البرامج وصناعها، ومع أن هذا المجال قد يبدو متسعاً وممتداً إلي آفاق بعيدة، إلا أنها في واقع الأمر ليست افاقا لا نهائية، وإنما ستتضاءل الحاجة إلي برامج المعلومات بعد فترة من ازدهارها وانتشارها وتشبع مجالات الحياة بها وبقدراتها، ومن ثم يبدأ الطلب علي هذه البرامج في التراجع شأنه شأن الطلب علي كثير من متطلبات الحياة التي تشهد منحنيات صاعدة بسرعة ثم مستقرة عند سقف معين.

(٤) وإذا كان هذا أمراً متوقعاً ولابد أن يحدث فإنه يفرض علينا ضرورة التفكير في المستقبل البعيد لجيل من صناع المعلومات قبل أن يجد هؤلاء أنفسهم متورطين ـ بحكم اقتصاديات البطالة ـ في أنشطة غير مشروعة تفيد من الخبرة

الهائلة بالحاسبات والمعلومات في أنشطة مؤثمة مثل تزييف النقود، وبطاقات الائتمان علي سبيل المثال، وهذه ربما تكون في ذلك الوقت أخف الجرائم، علي حين يمكن تصور جرائم السطو والاختلاس المدعمة بالإمكانات المعلوماتية وقد تمكنت من نقل الأموال من حساب بنكي إلي آخر، أو من تدمير حسابات أية مؤسسة مالية أو مصرفية..ولن يقف الأمر عندئذ عند حدود ارتكاب الجرائم،وإنما سيتصل أيضاً بالتهديد بارتكابها، أي أنه سيصل إلي حدود مشابهة لما نعرفه من الابتزاز والاغتصاب وما إلي هذا كله من صور جرائم لا نهاية لها.

(٥) خامس المحاذير يعكس أهمية التفكير في المشكلات الجانبية الناشئة عن توظيف تكنولوجيات المعلومات لإنجاز العمليات الإنتاجية والخدمية علي حد سواء، إذ أن أصعب هذه الآثار هو نشأة بطالات جديدة نتيجة الاستغناء عن خدمات الجهد اليدوي والقائمين به من بشر، وهو ما حدث من قبل في مراحل مختلفة واكبت تطور الصناعات والتحول الإنتاجي إلي الأوتوماتية، وربما أن هذا الأثر هو أقل الآثار خطورة إذا ما

قورن بالمحاذير السابقة، ولكنه مع هذا يظل ماثلا وقائما وبخاصة في مجتمعات تقبلت كثرة الوظائف الخدمية المعاونة، بل ورأت فيها ما يبدو وكأنه الحل الأمثل لمشكلات البطالة.

■

ومع أننا قد نستطيع الآن وفي الظروف المعاصرة التحكم في الظروف الكفيلة بتوزيع قوي العمالة المتاحة، إلا أن فترات لاحقة من المستقبل قد لا تمكننا من هذا النجاح بنفس القدر، وهو ما ينبغي أن نتحسب له من الآن علي نحو كفيل بمواجهة توزيع أمثل لخريطة القوي العاملة.

نحو منظومة اعلامية

ما من مصرى إلا وقد أصبح فى الأسابيع الأخيرة يؤمن بحاجة بلاده إلى منظومة إعلامية جديدة مواكبة للعصر، وقادرة على التعبير عن مصر، ومكانتها، ورؤاها، وأولوياتها، واختياراتها، ومصالحها.

لكن السؤال الأهم هو: هل من الممكن أن يعاد بناء المنظومة الإعلامية لمصر؟ أم أن هذا أصبح من المستحيل؟

ويعقب هذا سؤالان فرعيان آخران، أولهما: هل تريد مصر حقا إعادة بناء منظومتها الإعلامية؟

والثانى منهما: كيف يمكن إعادة بناء هذه المنظومة؟

وسنحاول الإجابة على هذه الأسئلة مع إعادة ترتيبها ترتيبا منطقيا يبدأ بالأسئلة الفرعية قبل السؤال الأساسى أو الجوهرى.

فأما عن السؤال الفرعى الأول فنحن نلاحظ أن الحرب

الأخيرة فى غزة رفعت من درجة الإرادة الشعبية بما يوازى الرفع مما هو أقل من ١٠٪ إلى ما هو أكثر من ٩٠٪، حتى بات أبسط عامل فى أبعد النجوع عن القاهرة (وفى أقصى بلاد المهجر التى وصل إليها مصريون) يتساءل عن سر هذا «التواضع الباهت والمقيت» فى الأداء الإعلامى المصرى؟! ويتعجب من أن تسكت «الدولة» المصرية، بما عرف عنها من مركزية، عن هذا التشتت والتضاؤل الذى كان سمة مميزة للأداء الإعلامى المصرى طيلة شهر كامل.

لكننا نعرف أن الإرادة الشعبية شىء، والإرادة الرسمية شىء آخر، وليس من باب التجاوز أن يقول الشعب إنه لم ير حتى الآن أية أدلة على رغبة رسمية فى تغيير (ولا نقول تطوير) أسلوب عمل المنظومة الإعلامية المصرية عما وصل إليه!! وبالطبع فإن الإرادة الرسمية لا تقل أهمية عن الإرادة الشعبية فى هذا الشأن، كما أن هناك صعوبة أخرى (أو التباسا بمعنى أصح) يتمثل فى توزع الإرادة الرسمية ما بين ثلاثة أنواع من السلطات المسئولة عن هذا التوجه وهى: الأجهزة التنفيذية، والأجهزة البرلمانية ممثلة فى مجلس الشورى الذى هو بحكم القانون المالك

الرسمى والمتحكم بطريقة أو أخرى فى وسائل الإعلام الأخرى، ثم السلطة الثالثة التى لا يعرف المصريون حتى الآن أن يبلوروها فى سلطة واحدة، أو جهاز واحد، أقصد بها السلطة على التكنولوجيا الجديدة المتمثلة فى شبكة الإنترنت، واليوتيوب، والفايس بوك، والبريد الإلكترونى.. إلخ، التى أصبحت دون أن يدرى أحد هى النموذج الأكثر قيمة بين مظاهر الفوضى الخلاقة!

أما السؤال الفرعى الثانى المتعلق بالكيفية فإنه يجمع بين عناصر فنية وسياسية وإدارية ومالية وإدارة مالية ومحاسبية ورقابية، ونحن لا نتصور أن يكون الحل ساذجا من قبيل غض الطرف عن المؤسسات القائمة حتى تسقط، بينما يتم بناء منظومات جديدة على غرار المنظومات الجديدة الناجحة هنا أو هناك، فمثل هذا التوجه هو أخطر ما فى الموضوع، لا على المؤسسات الإعلامية وحدها، ولكن على مصر نفسها، وأمنها القومى، وسلامها الاجتماعى.

فضلا عن هذا فإن اللجوء إلى مثل هذا الحل الذى يبدو فى

ظاهره أسهل إيقاعا (وأكثر فائدة للذين يتبنونه) لم يثبت فى ظروفنا المصرية أى نجاح ولو بسيط فى منظومة أخرى من التى سبقت إلى اقتحام مجالات التحديث دون أن تحقق أى نجاح يوازى ما أنفق فى المسارات البديلة، ودون أن تتهاوى المنظومات القديمة، بل على العكس، فإنها ازدادت شراسة ولا نقول قوة، وأصبحت تدافع عن وجودها بما يشغلها عن أداء أى دور، وبما يشتت جهود الدولة فى أى مسار مواز، والأمثلة أوضح من أن تذكر.

بعد هذه الإجابة عن السؤالين الفرعيين نأتى إلى السؤال الجوهرى وهو: هل يمكن إعادة البناء إذا تحققنا من وجود الرغبة والإرادة؟

وربما أن الإجابة على هذا السؤال هى أصعب ما فى الموضوع، فقد تعقدت المشكلات التى أحاطت بعناصر المنظومة الإعلامية المصرية من داخلها، ومن خارجها، حتى أصبح من الصعب (وربما من المستحيل.. وربما من رابع المستحيلات) أن تجرى لها إعادة بناء، وليس أدل على هذا من أن أى مخطط (أو

مراقب إدارى، أو مراجع حسابات، أو خبير فى الموارد البشرية) سيقف مذهولا أمام الكتلة البشرية الكبيرة التى هى مقيدة على ذمة اتحاد الإذاعة والتليفزيون، وسيعجب كل هؤلاء من أن يكون هناك حل إنسانى كفيل بالتصرف فى كتلة بشرية ذات كفاءات متعددة يصل تعدادها إلى أكثر من خمسين ألفا من البشر المؤهلين (على الورق تماما وتماما جدا) بالشهادات الدراسية، وبشهادات الدورات التدريبية، وبشهادات الخبرة المتصلة!!

صحيح أن هؤلاء قادرون على صنع المعجزات إذا ما توافرت عناصر الإرادة الرشيدة، والحوكمة الحقيقية، لكن هذا المعنى أيضا أثبت أنه عاجز عن أن يجد طريقه إلى أرض الواقع، وربما أن الفائدة الوحيدة لهذا التجمع البشرى الكبير سوف تقتصر على دور هذه الكتلة فى الانتصار لمرشح ما (أى مرشح) فى الانتخابات فى دائرة قصر النيل فى الدورة البرلمانية القادمة (٢٠١٠).

وقل مثل هذا الذى يقال عن ماسبيرو عن كثير من أوضاعنا الإعلامية فى مؤسسات أخرى.

ومع أننا، نحن وغيرنا، نملك تصورا كاملا عن إعادة بناء هذه المنظومة، فإنه ليس من المنطقى أن نشغل القارئ بتصورات تفصيلية وتقنية بينما هو يريد أن يطمئن إلى أن رابع المستحيلات ممكن فى ظل أصعب الظروف إذا ما توافرت الإرادتان الشعبية (وهى متوافرة بالفعل)، والرسمية وعناصر الإدارة القادرة (وهى ليست خافية على أية حال، لكنها مغيبة جزئيا بفعل أكثر من فاعل).

والواقع أن كل ما يتمناه الإنسان لهذا الميدان وغيره ممكن، وممكن جدا بشرط واحد هو أن تتمتع الأمنية بالجدية، وهى السمة التى لاتزال غائبة تماما عن اللحظة التى نعيشها، والتى لا تحتاج شيئا آخر غير الجدية، والجدية وحدها!!

كتب للمؤلف

- الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً
- الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً
- سيرة حياة على مصطفى مشرّفة
- مشرّفة بين الذرة والذروة
- سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى
- أحمد زكى حياته وفكره وأدبه
- الدكتور على باشا إبراهيم
- الدكتور نجيب محفوظ
- الدكتور سليمان عزمى باشا
- عاشق العلم أحمد مستجير
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية
- أستاذ الجيل فى السعودية ، محمد طاهر الدباغ
- الحكيم الجراح
- إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)
- سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح
- عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية
- على ماهر و نهاية عصر الليبرالية
- عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية
- صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)
- مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)
- مصريون معاصرون
- كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ورثاءات
- يرحمهم الله : كلمات فى التأبين
- الطريق إلى النكسة ، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣
- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ٩٧٢
- الأمن القومى لمصر ، مذكرات قادة المخابرات والمباحث

- قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيا
- أهل الثقة وأهل الخبرة..مذكرات وزراء الثورة
- مذكرات وزراء الثورة
- الثورة والحرية ، مذكرات المرأة المصرية
- مذكرات المرأة المصرية
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار
- مذكرات الضباط الأحرار
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢
- فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية
- فى ضوء القمر : مذكرات قادة العمل السرى والاغتيالات السياسية
- العمل السرى فى ثورة ١٩١٩
- فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين
- محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء
- من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية
- عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب
- أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث
- آراء حرة فى التربية والتعليم
- مستقبل الجامعة المصرية
- تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين
- الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الادب والأدباء
- بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون
- فى حدائق الجامعة : مذكرات خريجى جامعة القاهرة فى عقدها الأول (١٩٣٠-١٩٤٠):
- مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق
- فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين
- يساريون فى زمن اليمين : مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى
- غربة اليسار المصرى
- القاهرة تبحث عن مستقبلها
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار
- مستقبلنا فى مصر : دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية
- الصحة والطب والعلاج فى مصر
- الصحة والطب والعلاج فى مصر
- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين

- في ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع
- على هوامش الأدب
- ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة
- من بين سطور حياتنا الأدبية
- أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى
- كلمات القرآن التى لا نستعملها
- أوراق القلب (رسائل وجدانية)
- أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى
- رحلات شاب مسلم
- شمس الأصيل فى أمريكا
- كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى
- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى
- المسلمون والأمريكان فى عصر جديد
- يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨
- النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)
- البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)
- البنيان الوزارى فى مصر (١٩٥٢ـ ١٩٩٦)
- الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم
- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)
- المحافظون.. قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠ ـ ٢٠٠٠)
- القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)
- أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)
- على مصطفى مشرفة
- على باشا إبراهيم
- النوافذ المتلونة
- هل انتهى عهد الثقافة الوطنية